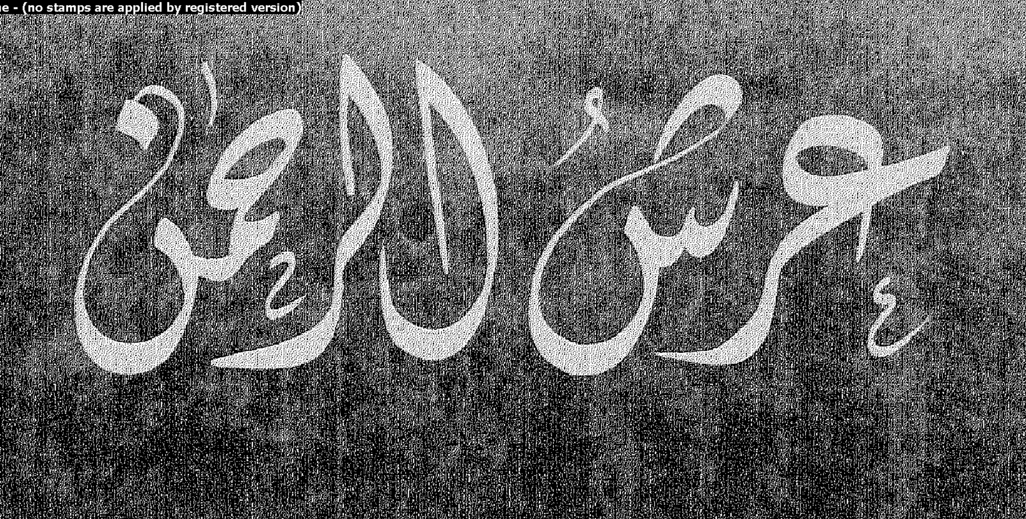


عرش الرحمن

تأليف شيخ الاسلام

أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية

تحقيق

الشيخ عبد العزيز السيروان







عرش الرحمن



عرش الرحمن

تأليف شيخ الإسلام
أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية

تحقيق
الشيخ عبد العزيز السيروان



دار العلوم العربية
بيروت - لبنان



الطبعة الأولى
١٤١٥هـ ١٩٩٥م

الناشر
دار العلوم العربية
للطباعة والنشر
مقابل جامعة بيروت العربية
بناية عنان
هاتف: ٣٠٧١٧٣
ص.ب: ٩٥٣٥ - ١١
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

[illegible]

الصفحة الاولى من المخطوط

(رسالة العلو) الرقم ٨٦٧٨٢

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله ... ورحمة العزيز ...
... على العرش ... أم لا فإذا كان ...
محيط به بائن عنه فما بالك أن الخلق يتوجهون إلى الله حين الدعاء
وعبادته فيقصدون العلو دون غيره ولا فرق حينئذ بين الدعاء
بين قصد جهة العلو وغيرها من الجهات التي تحيط بالداعي
ومع هذا نجد في قلوبنا قصداً يطلب العلو لا يلتفت يمنة ولا
يسرة فأخبرنا عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا وقد فطرنا
عليها وابسطوا لنا الجواب بسطاً يزيل الشبهة ويحقق الحق ...
الجواب عن هذا السؤال ثلاث مقدمات أحدها أن الفلاسفة الذين يقولون
لم يثبت بدليل يعتمد عليه أن العرش فلك من الأفلاك المستديرة
الكرية الشكل لا بدليل شرعي ولا دليل عقلي وإنما ذكر هذا
طائفة من المتأخرين الذين نظروا في علم الهيئة وغيره من
أجزاء الفلسفة فرأوا أن الأفلاك تسعة وأن التاسع هو
الأطلس محيط بها مستدير كاستدارتها وهو الذي
يحركها الحركة المشرقية وإن كان لكل فلك حركة تخصه
من هذه الحركة العامة ثم سمعوا في أخبار الأنبياء ذكر العرش
والكرسي وذكر السموات السبع فقالوا بطريق
الظن إن العرش هو الفلك التاسع لاعتقادهم أنه ليس
وراء التاسع شيء إما مطلقاً وإما أنه ليس وراءه مخلوق
ثم إن منهم من رأى أن التاسع هو الذي يحرك الأفلاك
كلها فجعلوه مبدأ الحوادث ...

الصفحة الثالثة من المخطوط

بسم اللّه الرحمن الرحيم

تصدير عام

إن الحمد للّه نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيّئات أعمالنا، من يهده اللّه فلا مُضلَّ له، ومن يُضللْ فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلاّ اللّه وحده لا شريك له، وأشهد أنّ سيدنا محمداً عبده ورسوله صلّى اللّه عليه وآله وسلم.

﴿يا أيُّها الذين آمنوا اتّقوا اللّه حقَّ تُقاتِه ولا تَمُوتُنَّ إلاَّ وأنتم مسلمون﴾[1] ﴿يا أيُّها الناسُ اتّقوا ربّكم إنّ زَلْزَلَةَ السّاعةِ شيْءٌ عظيمٌ، يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كل مُرضعةٍ عما أرضعتْ، وتَضَعُ كلُّ ذاتِ حَمْلٍ حملها، وترى الناسَ سُكارى وما هم بسكارى ولكنّ عذابَ اللّه شديدٌ﴾[2].

﴿يا أيُّها الذين آمنوا آمِنوا باللّه ورسولِهِ والكتابِ الذي نَزَّل على رسولِهِ والكتاب الذي أُنزل من قَبْلُ، ومن يكفرْ باللّه وملائكتهِ وكُتبه ورسُلِه واليوم الآخر فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً﴾[3].

---

(١) سورة البقرة الآية ١٣٢.
(٢) سورة الحج الآية ٢.
(٣) سورة النساء الآية ١٣٦.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين صلاة دائمة إلى يوم الدين.

أما بعد

فإنّ أصدقَ الحديث كتاب اللّه، وأحسنَ الهدي هَدْيُ محمّد ﷺ وشرَّ الأمور مُحدثاتها، وكلّ مُحدثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالةٍ في النار.

فهذا الكتاب صغير الحجم، قليل عدد الصفحات، ولكنّه حوى بين دفّتيه نفائس الفكر الإسلامي، ودقائق من أصول العقيدة الإسلاميّة وأسسها، مما يتوجّب على كلّ مسلم دراسته ومعرفته وتبنِّيه.

إنه كتاب **«عرشُ الرحمن وما ورد فيه من آيات كريمة وأحاديث شريفة وآثار»** بقلم شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيميّة الذي قضى حياته مدافعاً عن العقيدة الإسلامية، واقفاً طوداً شامخاً في وجه كلّ الذين حاولوا ويحاولون الدسّ والابتداع والترقيع في هذه العقيدة التي قال عنها رسول اللّه ﷺ وعن الإسلام عموماً: «قَدْ تَركْتُكُمْ على البيْضاء، لَيْلُها كَنَهارِها. لا يزيغُ عَنْها بَعدي إلاّ هَالِك، وَمَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيرى اخْتلافاً كثيراً، فَعَلَيْكُمْ بِما عَرَفْتُمْ مِنْ سُنّتي وَسُنّة الخلفاء الرّاشدينَ المهديّين، عُضُّوا عليها بالنّواجِذِ، وَعلَيْكُم بالطّاعة..».

وكتاب «عرش الرحمن» هذا ينفرد عن غيره من الكتب التي تناولت هذا الموضوع بالبحث والدرس والتحقيق بأنه جعل إمامه في الإثبات والنقاش كتابَ اللّه وسنة رسوله ﷺ، ومن ثُمّ عرض آراء المخالفين ففنّدها وردّ عليه الواحد تلو الآخر. وحشد من الأدلة والأفكار والآراء ما يثلج القلب باليقين، ويتحف العقل بالمنطق الصحيح، ويروي غُلَّة المؤمنين

بمعرفة وجهتهم إلى معبودهم، ويحيِّر الألْباب بما أتى به من نظريات فلكية عن الأرض والكون مما أثبته علماء القرن العشرين ممن جابوا بين الكواكب وارتفعوا فوق القمر.

ولا بد بادىء ذي بدء من التأسيس على ركائز وثوابت لا بدّ منها، والخروج عنها يُعدُّ خروجاً عن العقيدة الإسلامية، والتشوش في فهمها يورث زيغاً وريبة ربّما أوقع أصحابه في الهلاك. قال اللّه تعالى: ﴿فلَّما زَاغوا أزاغَ اللّه قلوبهم﴾[1] ، وقال جلّ شأنه: ﴿اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾[2] .

فمن هذه الركائز والثوابت:

١ـ أن اللّه تعالى لا يشبه شيءٌ من صفاته صفاتَ المخلوقين، كما لا تشبه ذاتُهُ ذوات المخلوقين، قال اللّه تعالى: ﴿لَيْسَ كمِثْلِهِ شيءٌ وهو السميعُ البصيرُ﴾[3] ، وعلى هذا كان سلف الأمّة وعلماؤها، تلقَّوا هذه الصفات كلّها بالإيمان والقبول، وتجنبوا فيها التأويل والتمثيل، ووكّلوا العلم فيها إلى اللّه ﴿والراسخُونَ في العلْمِ يقُولون آمَنّا به كلٌّ من عندِ ربِّنا﴾[4] .

٢ـ نؤمن بالآيات الكريمة والأحاديث الشريفة التي تروي بأن اللّه تعالى ينزل إلى السَماء الدنيا، وأن اللّه تعالى يضع قدمه، وأن له عرشاً استوى عليه وما أشبه ذلك، نؤمن بها، ونُصَدِّقُ بها، وبلا كيف ولا معنى، ولا نردُّ منها شيئاً، ولا نردُّ على اللّه قولَه، ولا على رسول اللّه ﷺ قولَه،

---

(١) سورة الصف، الآية: ٦١.
(٢) سورة الفاتحة، الآيات: ٥ ـ ٧ .
(٣) سورة الشورى، الآية: ١١.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٧.

ولا يوصفُ اللّه تبارك وتعالى بأكثر ممّا وصفَ به نفسه، بلا حدٍّ ولا غاية ولا تشبيه، فما وصف اللّه من نفسه فسماه على لسان رسوله ﷺ سميناه كما سمّاه، ولم نتكلَّف منه صفة ما سواه، لا نجحد ما وصف، ولا نتكلَّف معرفة مالم يصف.

٣ـ إثبات النصوص المُحكمة في كتاب اللّه تعالى وآيات الصفات هي نصوص محكمة ـ وليست من المتشابه ـ وبناء عقيدتنا بموجبها، ووضع النصوص المتشابهة من ورائها من حيث فهمها والوقوف على المعنى المراد منها، ونشدّد النكير على من يتجاهل النصوص المحكمة النيّرة القاطعة، ليَلحق العبارة المتشابهة الغامضة، ويفسرها كما يشاء، وذلك في قوله تعالى: ﴿هُو الذي أنزلَ عليكَ الكتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحكَماتٌ هُنّ أمُّ الكتابِ، وأُخَرُ متشابهات، فأمّا الذين في قلوبهم زَيْغٌ فيتَّبعونَ ما تشابَهُ مِنْهُ ابتغاءَ الفتنةِ وابتغاءَ تأويلِهِ، وما يعلمُ تأويلَهُ إلاّ اللّه والراسخونَ في العلمِ يقولونَ: آمنّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عندِ ربِّنا وما يذكّرُ إلاّ أُولوا الألبابِ﴾[1] .

وعلينا أن نؤمن أن ما ذكر عن رسول اللّه ﷺ بالأسانيد الصحيحة أنه سماه من صفةِ ربه، فهو بمنزلة ما سمّى ووصف الربُّ تعالى من نفسه.

والراسخون في العلم، الواقفون حيث انتهى بهم علمهم، الواصفون لربهم بما وصفَ نفسَه، التاركون بما لم يسمَّ تعمقاً، لأن الحقّ تركُ ما ترَكَ، وسمى ما سمى ﴿ومن يتّبعْ غَيْرَ سبيل المؤمنين نُوَلِّه ما تولّى ونُصْلِهِ جهنَّمَ وساءَتْ مصيراً﴾[2] .

٤ـ علينا أن نؤمن أن قدم الإسلام لا تثبت إلى على قنطرة التسليم،

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٧.
(٢) سورة النساء، الآية: ١١٥.

والأسلم: عدم الخوض في أي تأويل أو تفسير تفصيلي لنصوص الصفات، والاكتفاء بإثبات ما أثبته الله تعالى لذاته، مع تنزيهه عز وجل عن كلّ نقص ومشابهة للحوادث (للمخلوقات).

٥ـ وعلينا أن نؤمن يقيناً، وبشكل جازم أن الله تعالى ليس كمثله شيء، وأن له وجهاً جلّ جلاله ليس كمثله شيء، وله نفس، ويد. . .إلخ. ليس كمثله شيء. وكما أن سمعه وبصره وعلمه وجلاله ليس كمثلها شيء. كذلك بقية الصفات مثل اليد والنفس والقدم ليس كمثلها شيء.

كما لابد من بعد ذكر هذه الأسس الركائز التي على المؤمن أن يستند إليها ويتبناها في درس وفهم عقيدته الإسلامية الصحيحة. أري إلقاء الضوء ببعض المفاهيم زيادة في الإيضاح على موضوع العقيدة عموماً وعلى موضوع «عرش الرحمن» على الخصوص.

وقبل أن ندخل في خضم الموضوع ومناقشة أطرافه وبنيته لابدَّ من التنويه إلى الجهد الذي بذله الزميل الكريم محمد عبد الرحيم (أبو أحمد) في تصحيح بروفات الكتاب وإخراجه بالشكل اللائق الذي يريح الباحثين والقراء، فجزاه الله خيراً. وألهمنا وإياه اتباع العقيدة الصحيحة في الفكر والعلم والعمل.

وآخر دعوانا أن الحمد للّه رب العالمين

المؤلف

الشيخ عبد العزيز عزالدين السيروان



المفهوم الأول

نهج المتكلِّمون ممن أثبتوا الصِّفات للّه تعالى على تقسيمها إلى أربعة أقسام: نفسيّة، وسلبيّة، وصفات معانٍ، وصفات معنويّة.

وهذا التقسيم مبني على اعتقادهم إثبات بعض الصِّفات إثباتاً حقيقياً، والتَّفويض في بعضها الآخر، أو إرجاعه إلى معانٍ فيها تنزيهُ للّه سبحانه وتعالى عن مشابهة المخلوقات على حدِّ زعمهم.

لكني هنا سأسلك طريق البيهقي الشَّافعي - رحمه اللّه - في هذا الموضوع، إذ ذهب إلى تقسيم الصِّفات إلى قسمين لا ثالث لهما يقول:

«صفات اللّه قسمان:

أحدهما: صفات ذاته، وهو ما استحقَّه فيما لم يزل ولا يزال، بل هي لا زمة أزلاً وأبداً، ولا تتعلَّق بها مشيئته تعالى وقدرته، وذلك كصفات الحياة والعلم، والقدرة، والقوَّة، والعظمة... الخ.

والآخر: صفات فعله، وهي ما استحقه فيما لا يزال دون الأزل إذ تتعلق بها مشيئته كل وقت وآن، وتحدث بمشيئته وقدرته، كالإستواء على العرش، والمجيء، والإتيان، والنُّزول إلى السَّماء الدُّنيا، والضَّحك... الخ.

ثم منه ما اقترنت به دلالة العقل كالحياة، والقدرة، والعلم، والإرادة، والسَّمع، والبصر، والكلام، ونحو ذلك من صفات ذاته،

وكالخلق، والرِّزق، والإحياء، والإماتة، والعفْوُ، والعقوبة، ونحو ذلك من صفات فعله.

ومنه ما كان إثباته ورود خبر الصّادق به فقط، كالوجه، واليدين، والعين، في صفات ذاته، وكالإستواء على العرش، والإتيان والمجيء، والنزول، ونحو ذلك من صفات فعله» .

ونخلص من كلام البيهقيِّ إلاَّ أن هنالك: **صفات عقليّة، وصفات خبريّة**.

فالصِّفات العقلية:

سُمِّيت عقليّة لأن العقل دلَّ على ثبوتها، مع ورود النَّصّ أي: أن مصدر إثبات هذه الصِّفات العقل والشَّرع معاً.

وهي قسمان:

١ـ صفات الذات العقليَّة: كصفة الحياة، والقدرة، والإرادة، والعلم، والسَّمع، والبصر، والكلام.

٢ـ صفات العقل العقليّة: كالخلق، والرِّزق، والإحياء، والإماتة، والعفو، والعقوبة.

أما الصّفات الخبرية:

سُمِّيت خبريّة، لأن الخبر الصّادق الذي جاء به القرآن الكريم، أو السُّنَّة الصَّحيحة دلَّ ثبوتها، وأما العقول فليس لها دور في إثبات هذه الصِّفات سوى التَّصديق بعد ثبوتها بطريق الوحي.

وهي قسمان:

١ـ صفات الذّات الخبريّة: كالوجه، واليدين، والعين، والقدم، والنَّفس... الخ.

٢ـ صفات العقل الخبريّة: مثل النُّزول، والإستواء، والإتيان، والمجيء... الخ.

والنَّاس في الصِّفات الخبريَّة فريقان:

١ـ فريق المثبتين.

٢ـ فريق النّفـــاة.

١ـ والمثبتون على فريقين:

آ ـ أحدهما (المشبّهة): يُجرون هذه الصفات على ظاهرها، ولكن دون تمييز بين الخالق والمخلوق، وهؤلاء هم المشبّهة، وأشهرهم: أصحاب هشام بن الحكم، وأصحاب هشام بن سالم الجواليقي، والكراميّة، وغيرهم.

ب ـ وثانيهما (السّلف): يُجرون هذه الصّفات على ظاهرها أيضاً فيثبتونها على حقيقتها للّه سبحانه، كما أثبتوا غيرها من الصّفات، إلاّ أنهم يُجرونها على ظاهرها اللائق بجلال اللّه، فلا يشبهونه بخلقه، لأنهم يثبتون للّه تعالى ما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ، إثباتاً لا تمثيل فيه ولا تشبيه، وينزهونه عن مشابهة خلقه، وهؤلاء هم السلف الذين اتبعوا طريق الوحي من كتاب وسنة إثباتاً ونفياً، عملاً بقوله تعالى في جانب التّنزيه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ.... ﴾ وقوله في تمام الآية عن جانب الإثبات: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ البصيرُ﴾[1]. وقوله سبحانه في جانب التنزيه أيضاً: ﴿هَلْ

---

(١) سورة الشورى الآية ١١.

تَعْلَم لَهُ سَمِيّاً﴾[١] . وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[٢] .

فكان إثباتهم للصّفات عملاً بآيات الإثبات، كما كان تنزيههم له سبحانه عملاً بآيات التنزيه.

٢ـ أما فريق النُّفَـــاة:

فيتمثّل في الجهميّة، والمعتزلة، وبعض الأشاعرة. والأشاعرة: منهم: المتقدِّمين، ومنهم: المتأخِّرين.

والمتقدِّمون: مثل رئيسهم أبي الحسن على بن إسماعيل الأشعري الذي ينتسبون إليه، وأبي بكر الباقلّاني: فإنهم يُثْبتون الصفات الخبرية من الاستواء، والوجه، واليدين، وغيرهما، مما وصف اللّه تعالى به نفسه، وما وصفه به رسوله ﷺ في السُّنَّة النَّبويَّة الصَّحيحة الصَّريحة، كما ذكر ذلك الأشعريُّ في كتابه «الإبانة» حيث يقول: «. . . قولنا الذي نقول به، وديانتنا التي ندين بها: التمسُّك بكتاب ربّنا عز وجل وبسنَّة نبينا ﷺ، وما روي عن الصحابة والتابعين، وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون، وبما كان يقول به أبو عبد اللّه أحمد بن محمد بن حنبل نضَّر اللّه وجهه، ورفع درجته وأجزل مثوبته قائلون، ولمن خالف قوله مجانبون. . . وجملة قولنا: . . . . إن اللّه مستوٍ على عرشه كما قال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى العرشِ استوَى﴾[٣] . وإن له وجهاً كما قال: ﴿وَيَبْقى وجهُ ربِّك ذو الجلالِ والإكرامِ﴾[٤] . وإن له يدين بلا كيف كما قال: ﴿خلقتُ بيديَّ﴾[٥] . وكما

---

(١) سورة مريم الآية ٦٥.
(٢) سورة الإخلاص الآية ٤.
(٣) سورة طه الآية ٥.
(٤) سورة الرحمن الآية ٢٧.
(٥) سورة ص الآية ٧٥.

قال: ﴿بَلْ يداهُ مبسوطَتَانِ﴾[1] . وإن له عيناً بلا كيف كما قال: ﴿تَجْري بأعْيُننا﴾[2] . كما ذكر مثل هذا في كتابه: «مقالات الإسلاميِّين».

وأما أبو بكر محمد بن الطَّيِّب الباقلّاني فإنه ذكر في كتابه «التَّمهيد»: أنه يُثبت جميع الصفات الذاتية والفعلية العقلية والخبرية.

وَالمتأخِّرين منهم: كأبي ألمعالي الجويني، والغزالي، والرَّازي: لا يُثبتونها، ويؤوِّلون ماورد فيها من آيات وأحاديث صحيحة لأمرين:

الأول : أن إثباتها يقتضي تشبيه اللّه تعالى بخلقه - بزعمهم -.

ثانيهما: أن الأدلّة عليه ظنّيّة، لأَنَّها تتمثل في مجرد ظواهر شرعيَّة، وهذه معارضة عندهم بما يعتبرونه أدلّة قطعيّة وهي الأدلَّة العقليّة.

وبناء على هذا اختلفت نظرتهم حيال الأدلَّة الشَّرعيَّة الدَّالة على الصِّفات الخبريَّة على رأيين:

الأول: تفويض العلم بمعانيها إلى اللّه جلَّ شأنه.

الثاني: تأويل تلك النُّصوص بصرفها عن ظواهرها إلى معانٍ تليق باللّه تعالى.

وفي بيان هذين المسلكين يقول سعد الدين التفتازاني:

«. . . . أما ظواهرَ الشَّرع فقوله تعالى: ﴿وجاءَ ربُّكَ﴾[3] و﴿هَلْ

---

(١) سورة المائدة الآية ٦٤.

(٢) سورة القمر الآية ١٤.

(٣) سورة الفجر الآية ٢٢.

ينظــرونَ إلاّ أَنْ يَــأتيهُــم اللّــه..﴾[1] و﴿الــرحمــن علــى العــرش استوى﴾[2] و﴿ويبقى وجه ربك....﴾[3] و﴿ولتصنع على عيني﴾[4] و﴿ولِما خلقتُ بِيَدَيّ﴾[5]، إلى غير ذلك.... وكقوله عليه الصلاة والسلام للجارية الخرساء: «أين اللّه»[6]، فأشارت إلى السّماء، فلم يُنكر عليها وحكم بإسلامها... والجواب أنها ظنّيات سمعيَّة في معارضة قطعيات عقلية، فيقطع بأنها ليست على ظواهرها، ويفوّض العلم بمعانيها إلى اللّه تعالى مع اعتقاد حقيقتها جرياً على الطّريق الأسلم الموافق للوقف على لفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تأويلَهُ إلا اللّه...﴾[7].

أو تؤوّل تأويلات مناسبة موافقة لما عليه الأدِلَّة العقليَّة.

ويبدو من هذا أن علماء الأشاعرة لم يتَّفقوا على تأويل نصوص الصِّفات الخبريَّة، بل منهم من ذهب إلى القول بالتفويض فيها، كما أنّ منهم من انتهى في آخر أمره إلى الرُّجوع إلى مذهب السّلف، وهو الإثبات.

والمهم: أننا نعود فنقرِّر ما بدأناه في موضوع الصِّفات الخبريَّة حيث دلّ على ثبوتها الخبر الصّادق الذي جاء به القرآن الكريم أو السُّنة النَّبويَّة

---

(١) سورة البقرة الآية ٢١٠.
(٢)سورة طه الآية ٥.
(٣)سورة الرحمن الآية ٢٧.
(٤) سورة طه الاية ٣.
(٥) سورة ص الآية ٧٥.
(٦) أخرجه مالك في الموطأ: (٧٧٧)= ومسلم في صحيحه في كتاب المساجد: (٣٣)، والنسائي في سننه في كتاب السهو:(٢٠)، وأبو داود في سننه: (٣٢٨٤)، وأحمد في المسند: (٢/ ٢٩١) و(٥/ ٤٤٩)، والهيثمي في مجمع الزوائد: (١/ ٢٣) و(٤/ ٢٤٤) والهندي في كنز العمال: (١٧٤٤).
(٧) سورة آل عمران الآية ٧.

الصَّحيحة، وأما العقول فليس لها دَوْر في إثبات هذه الصِّفات سوى التَّصديق واليقين.

وكما قلنا هي قسمان:

١ـ ذاتيَّــة: كالوجه واليدين والعين والقدم والنَّفس. . . . الخ.

٢ـ فعليَّة: كالنُّزول، والاستواء، والإتيان، والمجيء، والمحبَّة، والرضى، . . . الخ، حيث دلّ على ثبوتها القرآن الكريم أو السُّنَّة الصَّحيحة، ولا دَوْر للعقول في إثباتها أو تأويلها.

لذلك علينا إثبات هذه الصِّفات الخبريَّة والفعليَّة عملاً بآيات الإثبات، وتنزيهه سبحانه عن ما لا يليق به بآيات التنزيه؟.

ومن القسم الثاني الذي هو الصِّفات الخبريّة الفعليّة يهمنا في هذا المقام «الاستواء».



صفة الإستواء

* من أهم الصِّفات التي دار الكلام حولها صفة الإستواء وقد ورد إثبات هذه الصِّفة للّه تبارك وتعالى في سبعة مواضع من القرآن الكريم وهي قوله:

﴿الرَّحمنُ على العَرشِ استوى﴾[1].

﴿ثُمَّ اسْتوى عَلَى العرش الرَّحمنُ﴾[2].

﴿إنَّ رَبَّكُمُ اللّه الذي خَلَقَ السماوات والأرْضَ في ستَّةِ أيَّامٍ ثُمَّ اسْتوى عَلَى العرشِ﴾[3].

﴿اللّهُ الذي رَفَعَ السمواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتوى على العرشِ﴾[4].

﴿اللّهُ الذي خَلَقَ السمواتِ والأرضَ وما بينَهُما في سِتَةِ أيامٍ ثُمَّ استوى على العرشِ﴾[5].

---

(١) سورة طه الآية ٥.

(٢) سورة الفرقان الآية ٥٩.

(٣) سورة الأعراف ٥٤، وسورة يونس الآية ٣.

(٤) سورة الرعد الآية ٢.

(٥) سورة السجدة الآية ٤.

﴿هُو الذي خلقَ السمواتِ والأرضِ في ستةِ أيامٍ ثُمَّ استوى على العرشِ﴾[1] .

والمذهب الصَّحيح هو الإثبات لهذه الصِّفة ـ صفة الاستواء ـ وفق ما تضمَّنته من معانٍ، مع الجزم بعدم المشابهة في ذلك بين الخالق والمخلوق. وهذا هو مذهب السَّلف القويم. فلا تأويل، ولا تفويض.

من ذلك قول الإمام الأوزاعي:

«كنا والتابعون متوافرون نقول: إن اللّه تعالى ذِكْرُهُ فوق عرشه، ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته جل وعلا».

ويقول البعض ـ منهم الإمام البيهقيّ ـ أن هذا من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا اللّه. لكننا نقول لهم: إنَّه لم يقل أحدٌ من السَّلف بأن آيات الصفات من المتشابه. بل ذلك ابتدعه جماعة من المتأخرين، وليس لقولهم هذا ما يسنده من كلام السَّلف، بل المشهور المعروف عنهم إثباتهم للصِّفات جميعها بما فيها الإستواء إثباتاً حقيقياً.

ومن أقوال الأئمة في الإستواء: قول الإمام أبي حنيفة:

﴿الرحمنُ على العرشِ استوى﴾[2] ، أي: علا.

وقال أبو العالية: ﴿استوى إلى السماء﴾[3] : ارتفع.

وقال مجاهد: ﴿استوى﴾: علا على العرش.

وقال أبو عمر بن عبد اللّه أحد أئمة المالكية: أهل السُّنَّة مُجمعون

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٤.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٥٩.

(٣) سورة فصلت، الآية: ١١.

على الاقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن الكريم والسُّنَّة، والإيمان بها. وحملها على الحقيقة لا على المجاز، إلا أنهم لا يكيِّفون شيئاً من ذلك.

فالإستواء إذاً: ثابت للّه تبارك وتعالى حقيقة، فهو مستوٍ على عرشه، بمعنى أنه عالٍ ومرتفع عليه، من غير حاجة منه سُبحانه إليه، لأنه ـ جل وعلا ـ هو الذي خلقه وجعله أعلى المخلوقات. ثم استوى عليه تبارك وتعالى.

وهكذا نجد أن الأدلة النَّقليّة قد تواترت في موضوع الإستواء فإنَّ اللّه تعالى في السَّماء عالٍ على عرشه الذي هو أعلى مخلوقاته سبحانه، ومن ذلك الحديث الثابت في صحيح مسلم، وفيه قال راوي الحديث معاوية بن الحكم السُّلمي: .. وكانت لي جارية ترعى غنماً لي قِبَلَ أُحُد والجوانية، فاطَّلعت ذات يوم فإذا الذئب قد ذهب بشاة من غنمها، وأنا رجل من بني آدم، آسف كما يأسفون لكني صككتها صكّة، فأتيت رسول اللّه ﷺ فعظم ذلك علي فقلت: يا رسول اللّه ﷺ أفلا أُعتقها؟ قال: «أئتني بها»، فأتيته بها، فقال لها ﷺ: «أين اللّه؟»، قالت: في السماء، قال: «مَنْ أنا؟»، قالت: أنت رسول اللّه، قال: «أعتِقْها، فإنها مؤمنة»[1].

وكما أن الأدلة النَّقْليّة تضافرت على إثبات صفة الإستواء أي: العلوّ والفوقيّة للّه تعالى. كذلك نجد أن الأدلة العقليّة والفطريّة تشهدُ بذلك أيضاً (أنظر بحث العلو).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب المساجد: (٣٣) والنسائي في سننه في كتاب الوصايا، وأحمد في مسنده : (٤/ ٢٢٢ و٣٨٨ و٣٨٩) و(٥/٤٤٧). والبيهقي في السنن الكبرى: (٧/٣٨٨ و٣٨٩).



الجهـة

ولا بدَّ في هذا المقام من التَّطرُّق إلى موضوع الجهة، وقد كتب في هـذا الدكتور أحمد بن عطيَّة الغامدي في كتابه «البيهقي وموقفه من الآلهيات» كلاماً جيداً يحسن نقله، يقول: إنَّ لفظ الجهة فيه إجمالٌ وتفصيل، فنحن نوافق على نفيه عن اللّه تبارك وتعالى من وجه، ولكننا نثبته من الوجه الآخر.

ذلك أنَّه قد يُراد بنفي الجهة أنَّ اللّه تعالى ليس موجوداً في داخل هذا العالم، فإن أريد هذا، فإنَّ اللّه تبارك وتعالى مُنَزَّهٌ عن أن يكون في شيء من مخلوقاته.

وإن كان المقصود بنفي الجهة نفي الجهة العدميَّة ـ التي هي عبارة عن أن اللّه تعالى فوق هذا العالم كله ـ فإن هذه الجهة عدمية لا وجوديَّة، ولما كان اللّه تعالى فوق خلقه، فلا يصح أن يُقال إنه سبحانه ليس في جهة، بقصد نفي فوقيَّته وعلوه على خلقه، وعلى هذا فالجهة قسمان:

١ـ جهة يجب أن يُنزَّه اللّه تبارك وتعالى عنها، وهو هذا العالم الوجودي، فإنَّ اللّه تعالى ليس حالّاً في شيء من مخلوقاته.

٢ـ الجهة الثانية: عدمُ محض، وهو ما فوق العالم، فإثبات جهة للّه تبارك وتعالى بمعنى أنه فوق العالم على عرشه بائنٌ من خلقه، فهذا واجب شرعاً، مع مراعاة عدم التَّشبيه والتَّكييف والتَّعطيل، لأنَّ هذه الجهة ثابتة للّه تبارك وتعالى بما تواتر من نصوص الكتاب والسُّنَّة، وإجماع سلف الأمة.

بل جميع الرسالات السماوية والكتب المنزَّلة تثبت ذلك، فمن قال: إن اللّه تبارك وتعالى فوق العالم، لم يقل بجهة وجوديّة، بل بجهة عدميّة أثبتها الشَّرع، وأثبتتها الفطرة، والعقل أيضاً.

أما نفي علماء الكلام لهذه الجهة... فهذا نفي باطل مُخالف للكتاب والسُّنَّة وإجماع سلف الأمة، وهذا التفصيل هو ما ذهب إليه شيخ الاسلام ابن تيميَّة وسبقه إليه ابن رشد، فقد قال ابن تيميَّة موضحاً هذا المعنى:

إذا كان سبحانه فوق الموجودات كلّها، وهو غنيٌّ عنها، لم يكن عنده جهة وجوديّة يكون فيها، فضلاً عن أن يحتاج إليها، وإن أريد بالجهة ما فوق العالم فذلك ليس بشيء، ولا هو أمر وجودي، وهؤلاء أخذوا لفظ الجهة بالإشتراك وتوهَّموا وأوهموا إذا كان في جهة كان في شيء غيره، كما يكون الإنسان في بيته، ثم رتَّبوا على ذلك أن يكون محتاجاً إلى غيره، واللّه غنيٌّ عن كلٍّ ما سواه. أهـ.

فإثبات الجهة للّه تبارك وتعالى بالمعنى الذي ذكره ابن تيمية ـ رحمه اللّه... هو ما تضافرت الأدلة الشَّرعيَّة والعقليَّة والفطريَّة على إثباته.

أما نفي أن يكون اللّه تبارك وتعالى في جهة على الإطلاق... فإنَّ حقيقته نفي الوجود، وإن كان أصحابه لم يقصدوا ذلك، وإنما قصدوا التَّنزيه إلا أنهم وقعوا في خطأ جسيم، خالفوا به الشَّرع والعقل والفطرة.

التعريف بالعرش

لغـــة

والعرش في اللغة: عبار عن السَّرير الذي للملك، كما قال تعالى عن بلقيس ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عظيمٌ﴾[1] ، وليس هو فَلَكاً، ولا تفهم منه العرب ذلك، والقرآن الكريم إنما نزل بلغة العرب، فهو سريرٌ ذو قوائم تحمله الملائكة، وهو كالْقبَّة على العالم، وهو سقف المخلوقات.

فمن شعر عبد الله بن رواحة[2] :

شَهِدْتُ بِأَنَّ وَعْدَ اللّهِ حَقٌّ ... وَأَنَّ النَّارَ مَثْوَى الكَافِرِينَا

وَأَنَّ العَرْشَ فَوْقَ المَاءِ طَافٍ ... وَفَوْقَ العَرْشِ رَبُّ العَالَمِينَا

وَتَحْمِلُهُ مَلائِكَةٌ شِدَادٌ ... مَلائِكَةُ الإِلَهِ مُسَوَّمِينَا

---

(١) سورة النحل، الآية: ٣.

(٢) الشعر من البحر الوافر.

الآيات الكريمة التي ورد بها ذكر العرش

عرش الرحمن

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَواتِ والأَرْضَ في سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغشي اللّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً، وَالشَّمسَ والْقَمَرَ والنُّجومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّه رَبُّ الْعَالَمِين﴾(١) .

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللّه الّذِي خَلَقَ السَّمواتِ والأَرْضَ في سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللّه رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾(٢) .

﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لابْتَغَوْا إِلى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً * سُبْحَانَهُ وَتَعالَى عَمّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً * تُسبِّحُ لَهُ السَّمواتُ السَّبعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وإِنّ مِن شَيْءٍ إِلاّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ، وَلَكِن لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾(٣) .

﴿تَنزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ العُلى * الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى * لَهُ مَا في السَّمواتِ وَمَا في الأَرْضِ وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾(٤) .

﴿وَلَهُ مَنْ في السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٢.

(٣) سورة الإسراء، الآيات: ٤٢، ٤٣، ٤٤.

(٤) سورة طه، الآيات: ٤ ـ ٦.

وَلا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللّيْلَ والنَّهارَ لا يَفْتُرُونَ * أم اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الأرْضِ هُمْ يُنشِرُون * لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إلاّ اللّه لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللّه رَبِّ الْعَرْشِ عَمّا يَصِفُونَ * لا يُسْألُ عَمّا يَفْعَلُ وهُم يُسْألُونَ﴾[1] .

﴿قُلْ مَن رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيم * سَيَقُولُون لِلّه، قُلْ أفَلاَ تَتَّقُونَ﴾[2] .

﴿فَتَعَالى اللّه الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إلَه إلاّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيم﴾[3] .

﴿الّذِي خَلَقَ السَّموَاتِ والأرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا في سِتَّةِ أيّام ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسْئَلْ بِهِ خَبيراً * ..... * تَبَارَكَ الّذِي جَعَلَ في السَّمَاءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُنِيراً * وَهُوَ الّذِي جَعَلَ اللّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أرَادَ أن يَذَّكَّرَ أوْ أرَادَ شُكُوراً﴾[4] .

﴿ألاّ يَسْجُدُوا للّه الّذِي يُخرِجُ الْخَبْءَ في السَّمَوَاتِ والأرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُون * اللّه لا إلَهَ إلاّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيم﴾[5] .

﴿اللّه الّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأرْضَ وَمَا بَيْنَهُما في سِتَّةِ أيّام ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَالَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ شَفِيعٍ أفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ * يُدَبِّرُ الأمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إلى الأرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إلَيْهِ في يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ ألْفَ سَنَةٍ ممّا تَعُدُّون﴾[6] .

﴿وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مَنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ

---

(١) سورة الأنبياء، الآيات: ١٩ ـ ٢٣.
(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٨٦ و٨٧.
(٣) سورة المؤمنون، الآية: ١١٦.
(٤) سورة الفرقان، الآيات: ٥٩ ـ ٦٢.
(٥) سورة النمل، الآية: ٢٥ و٢٦.
(٦) سورة السجدة، الآية: ٤ و٥.

بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1] .

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَولَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾[2] .

﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ﴾[3] .

﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّموَاتِ والأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[4] .

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماوَاتِ والأَرْضَ في سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيها وَهُوَ مَعَكُمْ أَينَ مَا كُنْتُمْ واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[5] .

﴿وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ * وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾[6] .

﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾[7] .

﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ * ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدِ * فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾[8] .

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٧٥.
(٢) سورة غافر، الآية: ٧.
(٣) سورة غافر، الآية: ١٥.
(٤) سورة الزخرف، الآية: ٨٢.
(٥) سورة الحديد، الآية: ٤.
(٦) سورة الحاقة، الآية: ١٦ و١٧.
(٧) سورة التكوير، الآية: ٢٠.
(٨) سورة البروج، الآيات: ١٤ ـ ١٦.

ما ورد من أحاديث شريفة وأقوال مأثورة
عن عرش الرّحمن

* عن أنس رضي الله عنه أن زينب بنت جحش زوج النبيّ ﷺ كانت تفخر على أزواج النبي ﷺ تقول:

زوّجكنَّ أهاليكن، وزوجني الله من فوق سبع سموات، وفي لفظ: زوجنيك الرَّحمن من فوق عرشه.

* عن سعد بن أبي وقّاص أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال لسعد بن مُعاذ:

«لقد حكمتَ فيهم بحكمِ الله من فوق سبع سماوات»[1].

* عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«لما قضى الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي»[2].

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه: (٤/٨٢٠) و(٨/٧٢)، ومسلم في صحيحه في كتاب الجهاد باب: (٢٢) رقم: (٦٤) و(٦٦)، وأحمد في المسند: (٣/٢٢) و(٦/١٤٢)، والبيهقي في السنن الكبرى: (٦/٨) و(٩/٩٧)، والهندي في كنز العمال: (٣٠١١١) و(٣٧٠٨٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: (٤/١٢٩) و(٩/١٤٧ و١٦٥ و١٩٦)، ومسلم في صحيحه في كتاب التوبة باب: (٤) رقم: (١٦).

* عن أبي هريرة رضي اللّه عنه عن النَّبي ﷺ قال:

«من آمن باللّه ورسوله، وأقام الصَّلاة، وصام رمضان كان حقّاً على اللّه أن يُدخله الجنَّة هاجر في سبيل اللّه، أو جلس في أرضه التي ولد فيها».

قالوا: يا رسول اللّه، أفلا نبشِّر النَّاس بذلك؟.

قال: «إنَّ في الجنَّة مائة درجة أعدَّها اللّه للمجاهدين في سبيله، بين الدَّرجتين كما بين السَّماء والأرض، إذا سألتم اللّهَ عز وجل فاسألوه الفردوس، فإنَّه وسط الجنَّة، وأعلى الجنَّة، وفوقه عرش الرَّحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة»[1] .

* عن عبادة بن الصامت أن رسول اللّه ﷺ قال:

«الجنَّة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السَّماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة، ومن فوقها العرش، فإذا سألْتُمُ اللّهَ فاسألوهُ الفردوسَ»[2] .

* عن عبد اللّه بن مسعود في قوله تعالى: ﴿بَلْ أحياءٌ عندَ ربهم يُرزقون﴾[3] ، قال:

أما إنا قد سألنا عن ذلك، فقالوا: أرواحهم في أجواف طيرٍ خضر

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: (٤/١٩) و(٩/١٠٣)، والبيهقي في السنن الكبرى: (٩/١٥)، والهندي في كنز العمال: (٢٧٥).

(٢) أخرجه أحمد في المسند: (٢/٢٩٢) و(٥/٣١٦ و٣٢١)، وأبو نعيم في تاريخ أصفهان: (٢/٣٠٥).

(٣) سورة آل عمران الآية: ١٦٩ .

تسرح في الجنة في أيها شاءت، ثم تأوي إلى قناديل معلَّقة بالعرش، فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم ربك اطلاعه فقال: سلوني ماشئتم.

* عن أبي هريرة رضي اللّه عنه مرفوعاً: إنَّ اللّه تعالى يقول:

«أين المتحابون بجلالي؟! اليوم أُظلُّلهم في ظل عرشي، يوم لا ظلَّ إلا ظلي»[1].

* عن جابر رضي اللّه عنه مرفوعاً قال: أُذن لي أن أُحدِّث عن مَلَك من حملة العرش، ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبع مائة سنة.[2]

* عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال: أُتيَ رسول اللّه ﷺ بلحم فرفع إليه ذراع وكانت تُعجبه، فنهش منها، ثم قال:

«أنا سيد الناس يوم القايمةِ[3]» وذكر الحديث إلى أن قال:

«فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجداً لربي، ثم يُقال: يا محمد ارفع رأسك، سل تُعطه، واشفع تُشفَّع، فأرفع رأسي فأقول: أمتي يا رب أمتي، فيُقال: يا محمد أدخل من أُمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس في الأبواب».

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: (١٠/ ٢٣٣)، وأورده الزبيدي في اتحاف السادة المتقين: (٦/ ١٧٥)، وابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق: (٦/ ٣٢٥).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه: (٤٧٢٧)، وأبو نعيم في حلية الأولياء: (٣/ ١٥٨)، والهيثمي في مجمع الزوائد: (١/ ٨٠) و(٨/ ١٣٥)، والهندي في كنز العمال: (١٥١٥٤) و(١٥١٥٥) و(١٥١٥٧) و(١٥١٥٨)، والألباني في الأحاديث الصحيحة: (١٥١).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: (٤/ ١٦٣) و(٦/ ١٠٥)، ومسلم في صحيحه في كتاب الإعيان: (٣٢٧)، والترمذي في سننه: (٢٤٣٤)، وأحمد في المسند: (٢/ ٤٣٥ و١٣٦) و(٣/ ١٤٤)، والحاكم في المستدرك: (٤/ ٥٧٣) و(٦/ ٣٠)، والهندي في كنز العمال: (٣٢٠٤٢) و(٣٩٠٥١).

* عن أبي ذّر رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ:

«إن الآيتين من آخر سورة البقرة أوتيتهن من تحت العرش لم يؤتهما نبي قبلي»[1] رواته ثقات.

* عن أبي هريرة رضي اللّه عنه مرفوعاً:

«مَنْ أنظر مُعسراً، أو وضع عنه أظلَّهُ اللّه تحت عرشه يوم لا ظِلّ إلاّ ظله»، إسناده صالح[2].

* عن أبي ذرّ رضي اللّه عنه أن النبي ﷺ قال:

«يا أبا ذر ما السّموات عند الكرسي إلا كحلقة مُلقاة بأرض فلاة، وفضل العرش على الكرسيّ كفضل الفلاة على الحلقة»[3].

* * *

---

(١)أورده الألباني في مختصر العلو لعلي القاري: (١٢٤).

(٢) اخرجه الطبراني في المعجم الكبير: (١٩/١٦٦ و١٧٠)، والحاكم في المستدرك: (٢/٢٩).

(٣) أورده السيوطي في الدر المنثور: (١/٣٣٨)، والهندي في كنز العمال: (٤٤١٥٨)، والهيثمي في موارد الظمآن: (٩٤)، والقرطبي في تفسيره: (٣/٢٧٨)، وأبو نعيم في الحلية: (٣/١٦٧)، وابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق: (٦/٣٥٦).

وقد حشد الإمام العلامة ابن أبي العزّ الحنفي في كتابه «شرح العقيدة الطحاوية» أدلّة علوّه جلّ شأنه واستوائه على عرشه فقال:

الأول : التصرح بالفوقية مقروناً بأداة «مِنْ» المعينة للفوقية بالذاتِ، كقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾[1] .

الثـانـي: ذكرها مجرّدة عن الأداة، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾[2] .

الثالـث : التَّصريح بالعروج إليه نحو: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾[3] .

وقوله ﷺ: «فيعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم»[4] .

الـرابـع: التَّصريح بالصعود إليه، كقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾[5] .

الخامس : التَّصريح برفعه بعضَ المخلوقات إليه، كقوله تعالى: ﴿بَل رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾[6] ، وقوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾[7]

السـادس: التَّصريح بالعلو المطلق الدّال على جميع مراتب العلوّ، ذاتاً

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٨، والآية: ٦١.

(٢) سورة النحل، الآية: ٥٠.

(٣) سورة المعارج، الآية: ٤.

(٤)جزء من حديث أخرجه البخاري ٥٥٥ و٧٤٨٦ ومسلم ٦٣٢ والنسائي ١/ ٢٤٠-٢٤١ ومالك ١/ ١٧٠، وأحمد ٢/ ٢٥٧ و٣١٢ و٤٨٦، ......

(٥) سورة فاطر الآية ١٠.

(٦) سورة النساء الآية ١٥٨.

(٧) سورة آل عمران الآية ٥٥.

وقدراً وشرفاً، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾[1]، ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾[2]، ﴿إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[3].

السابع: التَّصريح بتنزيل الكتاب منه، كقوله تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّه الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾[4]، ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّه الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[5]، ﴿تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾[6]، ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[7]، ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾[8]، ﴿حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾[9].

الثامن: التَّصريح باختصاص بعض المخلوقات بأنها عنده، وأن بعضها أقربُ إليه من بعض، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾[10]، ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ﴾[11]، ففرق بين «مَنْ لَهُ» عموماً، وبين «مَنْ عِنْدَهُ» من عبيده خصوصاً، وقول النبي ﷺ في الكتاب الذي كتبه الرَّب تعالى على نفسه: «إِنَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٥٨.
(٢) سورة سبأ، الآية: ٢٣.
(٣) سورة الشورى، الآية: ٥١.
(٤) سورة الزمر، الآية: ١.
(٥) سورة غافر، الآية: ٢.
(٦) سورة فصلت، الآية: ٢.
(٧) سورة فصلت، الآية: ٤٢.
(٨) سورة النحل، الآية: ١١.
(٩) سورة الدخان، الآيات: ١ ـ ٥.
(١٠) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٦.
(١١) سورة الأنبياء، الآية: ١٩.

العَرْشِ﴾.

التـاسـع: التّصريح بأنه تعالى في السَّماء، وهذا عند المفسّرين من أهل السُّنة على أحد وجهين: إمّا أن تكون «في» بمعنى «على». وإمّا أن يُراد بالسَّماء العلوّ، لا يختلفون في ذلك، ولا يجوز الحمل على غيره.

العـاشـر: التّصريح بالاستواء مقروناً بأداة «عَلى» مختصاً بالعرش، الذي هو أعلى المخلوقات، مُصاحباً في الأكثر لأداة «ثُمَّ» الدّالة على الترتيب والمهلة.

الحادي عشر: التّصريح يرفع الأيدي إلى اللّه تعالى، كقوله ﷺ: «وإن اللّه يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفراً»[(١)] ، والقول بأن العلوّ قبله الدعاء فقط باطل بالضرورة والفطرة، وهذا يجده من نفسه كلُّ داع.

الثاني عشر: الإشارة إليه حسّاً إلى العلوّ، كما أشار إليه مَنْ هو أعلم به، وبما يجب له، ويمتنع عليه من جميع البشر، لما كان الرّسول ﷺ بالمجمع الأعظم حجة الوداع، في اليوم الأعظم، في المكان الأعظم بيت اللّه الحرام، قال لهم ﷺ:

«أنتم مسؤولون عني، فماذا أنتم قائلون؟».

قالوا: نشهد أنك قد بلَّغت وأديّت ونصحت.

فرفع أصبعه الكريمة إلى السَّماء، رافعاً لها إلى من هو فوقها وفوق كل شيء، قائلاً ﷺ:

---

(١) أخرجه السيوطي في جمع الجوامع: (٥٢٦٤)، وأبونعيم في حلية الأولياء: (٧/ ٢٥٤).

«اللهم أشهد»[1] .

فكأننا نشاهد تلك الأصبع الكريمة وهي مرفوعة إلى اللّه، وذلك اللّسان الكريم وهو يقول لمن رفع اصبعه إليه: «اللهم أشهد» ونشهد أنه بلَّغ البلاغ المبين، وأدى رسالة ربه كما أُمر، ونصح أمته غاية النّصيحة، فلا يحتاجُ مع بيانه، وتبليغه، وكشفه، وإيضاحه إلى تنطُّع المتأوّلين، وحذلقة المتحذلقين، بما يوافق آراء فلاسفة اليونان أو غنوصية الشرق.

الثالث عشر: التَّصريح بلفظ «الأين» كقول الرسول ﷺ وهو أعلم الخلق باللّه تعالى، وأفصحهم بياناً عن المعنى الصحيح: بلفظ لا يوهم باطلاً بوجهٍ، للجارية: «أين اللّه» قالت في السماء، قال: «من أنا»، قالت: أنت رسول اللّه، قال: «أعتقها فإنها مؤمنة»[2] .

الرابع عشر: إخباره ﷺ أنه تردد بين موسى عليه السلام وبين ربه ليلة المعراج بسبب تخفيف الصلاة، فيصعَدُ إلى ربه، ثم يعودُ إلى موسى عليه السلام عدة مرات.

الخامس عشر: النصوص الدالّة على رؤية أهل الجنَّة له تعالى من الكتاب الكريم، والسُّنَّة الشّريفة، وإخبار النَّبيِّ ﷺ أنهم يرونه كرؤية

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: (٢/ ٢١٧) و(٥/ ٢٢٣) و(٩/ ٦٣)، ومسلم في صحيحه: (٨٩٠) و(١٣٠٧) و(٢١٥٩)، وأبو داود في سننه: (١٩٠٥) و(٣٦٣٠) وابن ماجه في سننه: (٣٠٥٥) و(٣٠٥٨) و(٣٠٧٤) و(٣٩٣١)، والبيهقي في السنن الكبرى: (٥/ ٨ و١٣٩) و(٨/ ٢٠)، والحاكم في المستدرك: (٢/ ٤٧٢)، والهندي في كنز العمال: (١٢٩١٤) و(٢٥٦٨٥).

(٢) سبق تخريجه.

الشَّمس والقمر ليلة البدر ليس دونه سحاب، ولا يرونه إلا من فوقهم، كما قال ﷺ: «بينا أهل الجنة في نعيمهم، إذ سطع لهم نور، فرفعوا رؤوسهم، فإذا الجبّار جلّ جلاله قد اشرف عليهم من فوقهم: وقال يا أهل الجنة، سلامٌ عليكم، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾[1]، ثم يتوارى عنهم، وتبقى رحمته وبركته عليهم في ديارهم»[2].

ولا يتمّ إنكار الفوقيّة إلا بإنكار الرُّؤية، لذلك صدَّق أهل السُّنَّة بالأمرين معاً، وأقرُّوا بهما، ولو بُسطت الأدلّة الأخرى لبلغت نحو ألف دليلٍ.

أما الكلام السّلف في إثبات العلوّ فكثيرة جداً، جاء أغلبها في كتاب «العلوّ» للإمام الذّهبي، وفي كتاب «اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطّلة والجهميّة» لابن قيّم الجوزيّة ومِنْ ذلك ما روى شيخ الإسلام أبو إسماعيل الأنصاري في كتابه «الفاروق» بسنده إلى أبي مطيع البلخي: أنه سأل أبا حنيفة النُّعمان عمَّن قال: لا أعرفُ ربي في السَّماء أم في الأرض؟، فقال: قد كفر، لأنّ اللّه يقول: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[3]، وعرشه فوق سبع سماوات، قُلتُ: فإن قال: إنه على العرش، ولكن يقول: لا إدري العرش في السَّماء أم في الأرض؟، قال: هو كافر، لأنه أنكر أنّه في السَّماء، فمن أنكر أنه في السَّماء فقد كفر.

وقصّة أبي يوسف صاحب أبي حنيفة في استتابته لبشر المريسي لما أنكر أن يكون اللّه فَوْقَ العرش مشهورةٌ.

---

(١) سورة يس، الآية: ٥٨.
(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه: (١٨٤).
(٣) سورة طه الآية ٥.

وأمّا من تأوّل «فوق» بأنه خير من عباده وأفضلُ منهم، وأنه خيرٌ من العرش وأفضلُ منه، كما يُقال: الأميرُ فَوْقَ الوزير، والدِّينار فَوْقَ الدرهم، فذلك مما تَنْفِرُ عنه العقول السَّليمة.

وأمّا قول القائل ابتداء: اللّه خير من عباده، وخيرٌ من عرشه، من جنس قول القائل: الثَّلج بارد، والنَّار حارة، والشَّمس أضوأ من السِّراج، والسَّماء أعلى من سقف الدار. وليس في ذلك تمجيدٌ، ولا تعظيم، ولا مدح، بل هو من أرذل الكلام، وأسمجه وأهجنه، فكيف يليق بكلام اللّه تعالى الذي لو اجتمع الإنس والجنُّ على أن يأتوا بمثله، لما أتوا ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيراً!! بل في ذلك تنقُّص، كما قيل في المثل السَّائر[1]:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ السَّيْـفَ يَنْقُـصُ قُدْرُهُ إِذَا قِيل إِنَّ السَّيْفَ أَمْضَىَ مِنَ العَصَا

وعلوُّه سبحانه وتعالى مطلق من كل الوجوه فله فوقية القهر، وفوقية القدر، وفوقية الذات.

وعلوُّه تعالى مطلق من كل الوجوه، فأن قالوا: بل علوُّ المكانة لا المكان، فالمكانة: تأنيث المكان، والمنزلة: تأنيث المنزل، فلفظ: «المكانة والمنزلة» يُستعمل في المكانات النفسانيَّة والرَّوحانيَّة، كما يُستعمل لفظ «المكان والمنزل» في الأمكنة الجسمانيَّة، فإذا قيل: لك في قلوبنا منزلةٌ، ومنزلةُ فلانٍ في قلوبنا وفي نفوسنا أعظمُ من منزلة فلان، كما جاء في الأثر: «إذا أحبَّ أحدكم أن يعرف كيف منزلته عند اللّه، فلينظر كيف منزلة اللّه في قلبه، فإن اللّه يُنزل العبد من نفسه حيث أنزله العبد من قلبه»[2]، فقوله: «منزلة اللّه في قلبه»، هو ما يكون في قلبه من معرفة اللّه

---

(١) الشعر من البحر (الطويل).
(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد: (٥٠٢).

ومحبته وتعظيمه، وغير ذلك، فإذا عُرف أن: «المكانة والمنزلة» تأنيث «المكان والمنزل» والمؤنث فرع على المذكر في اللفظ والمعنى، وتابع له، فعلو المثل الذي يكون في الذهن يتبع علوّ الحقيقة، إذا كان مطابقاً كان حقّاً، وإلاّ كان باطلاً.

فإن قيل: المراد علوّه في القلوب، وأنه أعلى في القلوب من كلٍّ شيء.

قيل: وكذلك هو، وهذا العلو مطابقٌ لعلوِّه في نفسه على كلٍّ شي، فإن لم يكن عالياً بنفسه على كلٍّ شيء، كان علوّه في القلوب غيرَ مطابقٍ، كمن جعل ماليس بأعلى أعلى.

أما ثبوته بالعقل فمن وجوه:

أحدهما: العلم البديهي القاطع بأن كل مَوْجودَتَيْن، إما أن يكون أحدهما سارياً في الآخر، قائماً به كالصِّفات، وإما أن يكون قائماً بنفسه بائناً (منفصلاً) من الآخر. لذلك خلق اللّه العالم، فإمّا يكون خلقه في ذاته، أو خارجاً عن ذاته.

والأوَّل: (أن يكون الخلق في ذاته) باطل لسببين:

اوّلهما: اتفاق الأمَّة والعقول السَّليمة على ذلك، ثانيهما: فلأنه يلزم أن يكون محلاً للخسائس والقاذورات تعالى اللّه عن ذلك علوًّا كبيراً.

والثاني: يقتضي كون العالم واقعاً خارج ذاته، فيكون منفصلاً، فتعيَّنت المباينة، لأنَّ القول بأنَّه غير متّصل بالعالم، وغير منفصلٍ عنه غير معقول.

الثالث: أن كونه تعالى لا داخلَ ولا خارجه يقتضي نفيَ وجوده بالكلية لأنه غير معقول، فيكون موجوداً إما داخله وإما خارجه، والأول

(داخله) باطل، فتعيّن الثاني (خرجه)، فلزمت المباينةُ.

وأما ثبوته بالفطرة:

فإن الخلق جميعاً بطباعهم وقلوبهم السَّليمة يرفعون أيديهم عند الدعاء، ويقصدون جهةَ العلوِّ بقلوبهم عند التَّضرع إلى اللّه تعالى.

* * *

التعريف بالمؤلف

اسمه ومولده ونشأته

هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السّلام بن عبد اللّه بن أبي القاسم الحراني ابن تيمية الشيخ الإمام العلامة، والمفسِّر، الفقيه، المجتهد، المحدِّث، الحافظ، شيخ الإسلام نادرة العصر، ذو التَّصانيف الكثيرة جداً، تقيّ الدّين أبي العبّاس، ابن العالم المفتي شهاب الدِّين ابن الإمام شيخ الإسلام مجد الدِّين أبي البركات مؤلف كتاب الأحكام، أما اسم تيمية فهو لقب لجدِّه الأعلى.

ولد بمدينة حرّان (وهي تقع في الشَّمال الشَّرقي من القطر العربي السُّوريّ) في العاشر من ربيع الأول سنة ٦٦١هـ وانتقل به أبوه إلى دمشق سنة ٦٦٧هـ إثر هجوم التتار على بلدتهم حرّان.

بدت عليه سيما الذَّكاء والفطنة، فأُذِنَ له بدخول المجالس والمحافل وهو بعدُ صغير، فتكلّم وناظر وأتى بما حيّر أعيان البلد حينذاك، فقال قاضي القضاة محمَّد بن الحافظ الزَّملكاني: كان إذا سُئل عن فَنٍّ من الفنون ظنَّ الرّائي والسّامع أنه لا يعرف غيره.

فلازم العلماء والشُّيوخ حتى حفظ كتاب اللّه، وسمع الحديث من أئمته، وتعلَّم الفقه وقرأ العربيَّة، وبرع في النَّحو، وأقبل إقبالاً كُليّاً حتى حاز قصب السَّبق، وأحكم أصول الفقه، والكثير من العلوم الأخرى.

كلُّ هذا وهو ابن بضع عشرة سنة، حتى أُعجب العلماء من ذكائه، وقوة ذهنِه وحافظته، وسرعة إِدراكه.

ثم نظر في الرِّجال والعلل. وصار من أئمة النَّقد ومن علماء الأثر، ثم غاص في دقائق الفقه، ونظر في أدلَّته وقواعده وحُججه والإجماع والاختلاف، حتى كاد يُقضى منه العجب إذا ذكر مسألة في الخلاف استدلَّ ورجَّح واجتهد.

كذلك نشأ في تصوُّف تام وعفاف، واقتصاد في الملبس والمأكل، ولم يزل على ذلك خُلُقاً صالحاً، براً بوالديه، تقيّاً، ورِعاً، عابداً، ناسكاً، صُواماً، قوَّاماً، من الذَّاكرين، إلى أن توفّاه اللّه تعالى مجاهداً صابراً في سجن القلعة في دمشق.

أقوال بعض العلماء فيه

واللّه ما يبغض ابن تيمية إلا جاهل أو صاحب هوى. .

قال هذه الكلمات: قاضي القضاة محمد عبد البر السّبكي.

ونُقل عن التاج السّبكي قوله:

«سمعت شيخنا الذَّهبي يقول: ما رأيت أحداً في هذا الشأن (علم الحديث) أحفظ من الإمام أبي الحجاج المزّي، وبلغني أنه قال: ما رأيت أحفظ من أربعة: ابن دقيق العيد، والدمياطي، وابن تيميّة، والمزّي. .

«وقال عنه الإمام الشَّوكاني في «البدر الطالع»:

هذه قاعدة مطردة في كلِّ عالم يتبحر في المعارف العلميَّة، ويفوق أهل عصره، ويدين بالكتاب والسُّنَّة، فإنه لا بدَّ أن يستنكره المقصِّرون، ويقع له معهم محنة بعد محنة، ثم يكونُ أمرُهُ الأعلى، وقوله الأوْلى،

ويصير له بتلك الزّلازل لسان صدقٍ في الآخرين، ويكون لعلمه حظ لا يكون لغيره، وهكذا حال هذا الإمام، فإن بعد موته عرف النّاس مقداره، واتفقت الألْسُن بالثناء عليه، إلا من لا يعتد به، وطارت مصنفاته، واشتهرت مقالاته.

مؤلفاته:

تحدّث عن مؤلفاته مُعاصره العالم الحافظ أبو حفص عمر بن علي البزار في كتابه «الأعلام العليّة» فمن قوله:

وأما مؤلفاته ومصنفاته فإنها أكثر من أن أقدر على إحصائها، أو يحضرني جملة أسمائها، بل لا يقدر عليه ـ غالباً ـ أحد، لأنّها كثيرة جداً، كباراً وصغاراً، وهي منشورة في البلدان فقلّ بلد نزلته إلا ورأيت من تصانيفه، فمنها ما يبلغ اثني عشر مجلداً، ومنها ما يبلغ سبع مجلّدات ومنها ما يبلغ خمس مجلّدات... ولقد بلغني أنَّه شرع في جمع تفسير لو أتمَّهُ لبلغ خمسين مُجلّداً.

وفاتـــــه:

وفي سنة ٧٢٧هـ وفي سجن القلعة بدمشق توفي إلى رحمته تعالى ودفن في باب الصّغير جنوبي دمشق.

العـرش
أول المخلوقات

العرش والقلم:

هل العرش أول المخلوقات؟ أم القلم؟

العلماء في هذا على قولين، أصحها: إنَّ العرش قبل القلم، لِما ثبت في الحديث الصحيح، من حديث عبد اللّه بن عمرو رضي اللّه عنهما، قال: قال رسول ﷺ: «قدَّر اللّه مقاديرَ الخَلْقِ قَبْلَ أنْ يَخْلُقَ السماواتِ والأرض بخمسين ألْفَ سَنَةٍ، وعرشُهُ على الماءِ»[1] .

فهذا صريحٌ أنَّ التقديرَ وقع بَعد خلق العرش، والتقدير وقع عند خلق القلم، لحديث عُبادة بن الصامت رضي اللّه عنه، قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول:

«أوّلُ ما خلقَ اللّه تعالى القَلَمُ فقال له: اكتب، قال: ياربِّ وما أكتُبُ؟ قال: اكتبْ مقادير كُلِّ شيءٍ حتّى تقومُ السّاعة»[2] .

ولا يخلو قوله: «أول خلق اللّه القلم» إما يكون جملة، أو جملتين، فإن كان جملةً وهو الصحيح ـ كان معناه: أنه عند أوّل خلقه قال له: «اكتب» بنصب «أوّلَ» و«القلم».

---

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء: (١/٣١١).
(٢) أورده ابن أبي عاصم في السنة: (١/٤٨).

وإن كان جملتين فيتعيّن حمله على أنه أولُ المخلوقاتِ من هذا العالم، فيتفّق الحديثان، إذ حديثُ عبد بن عمرو وصريحُ في أن العرش سابقٌ على التقدير مقارن لخلقِ القلم، وفي اللفظ الآخر: «لما خلقَ اللّه القلم قال له: اكتب»[1]، ويُقال أنه القلم الذي أقسم تعالى به في قوله: ﴿ن ، وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطِرُونَ﴾[2].

* * *

(١) سبق تخريجه.

(٢) سورة القلم الآية ١ و٢ .



العرش
ليس هو الكرسي

جاءت كلمة «كرسي» في القرآن الكريم في موضعين، الأول: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمواتِ والأرْضِ﴾[1] ،-والثاني: ،﴿وألْقَيْنا عَلى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثمّ أناب﴾[2] .

ولا شكّ أنّ في الموضع الثاني معناه: مكان جلوس الملك (النبي سليمان عليه السّلام).

أما في الموضع الأول فللعلماء فيه أقوال:

فقد قيل: هو العرش، والصّحيح أنه غيره، نُقِل ذلك عن ابنِ عباس رضي اللّه عنهما وغيره.

وقيل: الكرسي موضع القدمين، والعرش لاَ يقدرُ قَدْرُهُ إلاّ اللّه تعالى. روى ذلك ابن أبي شيبة في كتاب «صفة العرش» والحاكم في «المستدرك»، وقال: إنه على شرط الشّيخين ولم يخرجاه، عن سعيد بن جبير .عن ابن عباس. وذلك في قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماواتِ والأرْضِ﴾. وقد روي مرفوعاً، والصّواب أنه موقوف على ابن عباس[3] .

وقال السُّدِّي: السماوات والأرض في جَوْفِ الكرسي، والكرسيُّ بين

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٥.
(٢) سورة ص الآية ٣٤.
(٣) انظر المستدرك للحاكم النيسابوري (٢/ ٢٨٢).

يدي العرش[١] .

وقال الطبري في تفسيره أيضاً[٢] : قال أبو ذر رضي اللّه عنه: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «ما الكُرسيُّ في العَرْشِ إلاّ كحَلَقَةٍ مِنْ حديدٍ أُلْقِيَتْ بَيْنَ ظَهْري فَلاَةٍ مِنَ الأرض»[٣] .

وقيل: كُرْسِيُّهُ: علمه، وينسب إلى ابن عباس[٤] ، وذلك لدلالة قوله تعالى: ﴿وَلا يَؤُدُهُ حِفْظُهُمَا﴾[٥] ، على أن ذلك كذلك، فأخبر أنه لا يؤده حفظ ما عَلِم وأحاط به مما في السَّموات والأرض، وكما أخبر عن ملائكته أنهم قالوا في دعائهم ﴿ربَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمَاً﴾[٦] ، فأخبر تعالى أن علمه وسع كل شيء، فكذلك قوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ والأرْضِ﴾[٧] ، وأصل الكرسيّ: العلم، ومنه قيل للصّحيفة يكون فيها علم مكتوب: «كراسة» ومنه قول الراجز في صفة قانص:

* حَتَّى إِذَا مَا احْتَازَهَا تَكَرُّسَاً *

يعني علم، ومنه يُقال للعلماء: «الكرسي» لأنّهم المعتمد عليهم، كما يُقال: أوتاد الأرض، يعني ذلك أنهم العلماء الّذين تصلح بهم الأرض. . . فالعرش غير الكرسي.

---

(١) انظر تفسير الطبري: (٥٧٩٠).
(٢) المرجع السابق: (٥٧٩٤).
(٣) أورده الألباني في الأحاديث الضعيفة.
(٤) انظر تفسير الطبري: (٥٧٨٧ ـ ٥٧٨٨).
(٥) سورة البقرة الآية ٢٥٥.
(٦) سورة غافر الآية ٧.
(٧) سورة البقرة الآية ٢٥٥.

فتوى شيخ الإسلام في هذا الموضوع

سُئل رحمه اللّه:

هل العرش والكرسي موجودان. أم مجاز؟ فأجاب: رضي اللّه عنه: الحمد للّه. بل «العرش» موجود بالكتاب والسُّنَّة، وإجماع سلف الأمة وأئمَّتها، وكذلك «الكرسي» ثابت بالكتاب والسُّنَّة، واجماع جمهور السَّلف.

وقد نُقل عن بعضهم: أن «كرسيه» علمه، وهو قول ضعيف. فإن علم اللّه وسع كلَّ شيء، كما قال: ﴿ربنا وسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رحمةً وعِلْماً﴾[1].

واللّه ـ تعالى ـ يعلم نفسه، ويعلم ما كان، وما لم يكن، فلو قيل: وسع علمه السموات والأرض، لم يكن هذا المعنى مُناسباً، لاسيّما وقد قال تعالى: ﴿ولا يؤوده حفظهما﴾[2] أي لا يثقله ولا يكرثه، وهذا يناسب القدرة لا العلم، والآثار المأثورة تقتضي ذلك، لكن الآيات والأحاديث في «العرش» أكثر من ذلك، صريحة متوازنة.

وقد قال بعضهم: إنَّ «الكرسي» هو العرش، لكن الأكثرون على أنهم شيئان.

---

(١) سورة غافر الآية ٧.
(٢) سورة البقرة الآية ٢٥٥.

وفي التفسير

* عن مجاهد إمام التفسير:

﴿وقرّبناه نجيّاً﴾[1] قال: بين السّماء السّابعة وبين العرش سبعون ألف حجاب، فما زال يُقرّب موسى حتى كان بينه وبينه حجاب، فلما رأى مكانه وسمع صرير القلم قال: ﴿ربِّ أرني أنظر إليك﴾[2].

* عن مقاتل بن حيان عن الضحاك في قوله تعالى: ﴿ما يكونُ من نجوى ثلاثة إلاّ هو رابعهم﴾[3]، قال: «هو على عرشه وعلمه معهم» وفي لفظ «هو فوق العرش وعلمه معهم». ومقاتل ثقة إمام.

* عن أبي مطيع الحكم بن عبد اللّه البلخي صاحب «الفقه الأكبر» قال:

سألت أبا حنيفة عمّن يقول: لا أعرف ربي في السماء أو في الأرض، فقال: قد كفر، لأن اللّه تعالى يقول: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾[4] وعرشه فوق سماواته.

---

(١) سورة مريم الآية ٥٢.
(٢) سورة الأعراف الآية ١٤٣.
(٣) سورة المجادلة الآية ٧.
(٤) سورة طه الآية ٥.

وجه اخر من البيان

هو أن الربّ سبحانه ثابت الوجود، ثابت الذات، له ذات مقدسة، متميِّزة عن مخلوقاته، يتجلّى يوم القيامة للأبصار، ويحاسب العالم، فلا يُجهل ثبوت ذاته وتمييزها عن مخلوقاته، فإذا ثبت ذلك فقد أوجد الأكوان في محلّ وحيز، وهو ـ سبحانه ـ في قدمه منزّه عن المحل والحيز، فيستحيل شرعاً وعقلاً عند حدوث العالم أنّ يحلّ فيه، أو يختلط به، لأنّ القديم لا يحلّ في الحادث، وليس هو محلاً للحوادث، فلزم أنْ يكونَ بائناً عنه، وإذا كان بائناً عنه، فيستحيل أن يكون العالم في جهة الفوق، وأن يكون الربُّ ـ سبحانه ـ في جهة التحت.

هذا مُحال شرعاً وعقلاً، فلزم أن يكون فوقه بالفوقية اللائقة به التي لا تُكَيّفْ ولا تُمَثّلْ، بأن يعلم من حيث الجملة والثبوت، لا من حيث التمثيل والتكييف.

وقد سبق الكلام في أن الإشارة إلى الجهة إنما هو باعتبارنا، لأنّا محلٌ وحيِّزٍ وحدٌ، والقِدَمُ لا فَوْقَ فيه ولا جهة، ولا بدّ من معرفة الموجد، وقد ثبت بينونه عن مخلوقاته، واستحالة علوِّها عليه، فلا يُمكن معرفته والإشارة بالدُّعاء إليه، إلاّ من جهة الفوق، لأنّها أنسبُ الجهات إليه، وهو غير محصور فيها، بل هو كما كان في أزليّته وقدمه، فإذا أراد المحدَث أن يُشير إلى القديم فلا يمكنه ذلك إلاّ بالإشارة إلى الجهة الفوقيَّة، لأن المشير

في محل: له فوق وتحت، والمشار إليه: قديم باعتبار قدمه. لا فوق هناك ولا تحت وباعتبار حدوثنا وتسفُّلِنا هو فوقنا.

فإذا أشرت إليه تقع الإشارة عليه كما يليق به، لا كما نتوهمه في الفوقيّه المنسوبة إلى الأجسام، لكنا نعلمها من جهة الإجمال والثّبوت لا جهة التمّثيل.

إذا علمنا ذلك واعتقدناه، تخلصنا من شبه التّأويل، وعماوة التّعطيل، وحماقة التّشبيه والتّمثيل، وأثبتنا علوَّ وفوقيّته، واستواءه على عرشه، كما يليقُ بجلاله وعظمته، فالحقُّ واضح في ذلك، والصَّدر ينشرح له.

... فالربُّ سبحانه.. وصف لنا نفسه بهذه الصفات لنعرفه بها، فوقوفنا عن إثباتها ونفيها، عدول عن المقصود منه فبتعريفنا إياه، فما وصف لنا نفسه بها إلاّ نُثْبِت ما وَصَفَ به نفسه ولا نقفُ في ذلك.

والتّشبيه والتّمثيل حماقة وجهالة، فمن وفّقه اللّه للإثبات بلا تحريف ولا تكييف، ولا وقوف، فقد وقع على الأمر المطلوب منه، إن شاء اللّه تعالى.

والذي شرح اللّه به صدري في حال هؤلاء الشُّيوخ، الذين أوّلوا الإستواء: بالاستيلاء، والنُّزول: بنزول الأمر، واليدين: بنعمتين، والقدرتين، هو علمي بأنهم ما فهِموا في صفات الرب إلا ما يليق بالمخلوقين.

فما فهموا عن اللّه استواءٌ يليقَ به، ولا نزولاً يليق به ولا يَدَيْن تليق بعظمته، بلا تكييف ولا تشبيه.

ونذكر بيان ذلك إن شاء اللّه تعالى فنقول: لا ريب أن نحن وإياهم

مُتفقون على إثبات صفات الحياة، والسَّمع، والبصر، والعلم، والقدرة، والإرادة، والكلام للّه تعالى.

ونحن قطعاً لا نعقل من الحياة إلا هذا العَرَضَ الذي يقوم بأجسامنا، وكذلك لا نعقل من السَّمع والبصر إلاّ أعراضاً تقوم بجوارحنا، فكما أنهم يقولون حياته ليست بعَرَضٍ، وعلمه كذلك، وبصره كذلك، هي صفات كما يليق به، لا كما يليق بنا.

فكذلك نقول نحن، حياته معلوماته، ليست مكيَّفة. وعلمه معلوم، وليس مكيّفاً، وكذلك سمعه وبصره معلوماته، وليس جميع ذلك أعراضاً، بل هو كما يليق به.

ومِثْلُ ذلك بعينهَ، فوقيَّته واستواؤه ونزوله، ففوقيَّة معلومة، أعني ثابتة كثبوت حقيقة السَّمع، وحقيقة البصر، فإنَّهما معلومات، ولا يُكيّفان، كذلك فوقيَّة معلومة ثابتة غير مكيَّفة كما يليق به، واستواؤه على عرشه معلوم ثابت كثبوت السمع والبصر، غير مُكيف، وكذلك نزوله ثابتٌ معلوم، غير مُكيّف بحركة، وانتقالٍ يليق بالمخلوق، بل كما يليق بعظمته وجلاله.

وصفاته معلومة من حيث الجملة والثُّبوت، غير معقوله له من حيث التَّكييف والتَّحديد، فيكون المؤمنُ بها مُبصراً من وجه، أعمى من وجه، مبصراً من حيث الإثبات والوجود، أعمى من حيث التَّكييف والتَّحديد.

وبهذا يحصل الجمع بين الإِثبات لما وصف اللّه به نفسه، وبين نفي التَّحريف والتَّشبيه، والوقوف، وذلك هو مُراد اللّه تعالى منّا ابراز صفاته لنا لنعرف بها، ونؤمن بحقائقها، وننفي عنها التَّشبيه، والجسميَّة، نلزمهم في هذه الصِّفات من العرضيَّة، وما يُنزهون ربهم به في الصِّفات السبَّع، وينفونه عنه من عوارض الجسم فيها، فكذلك نحن نعمل في تلك الصفات، التي

ينسبوننا فيها إلى التَّشبيه سواء بسواء.

ومن أنصف عرف ما قلناه واعتقده، وقبلَ نصيحتين، ودام للّه بإثبات جميع صفاته هذه وتلك، ونفي عن جميعها: التعطيل، والتشبيه، والتأويل، والوقوف.

وهذا مراد اللّه تعالى منا في ذلك، لأنَّ هذه الصِّفات وتلك جاءت في موضع واحد وهو الكتاب والسُّنَّة.

وأما مسألة الصِّفات فتساق مساق مسألة العلوّ، ولا يفهم منها ما يفهم من صفات المخلوقين، بل يوصف الرَّبّ تعالى بها كما يليق بجلاله وعظمته، فينزل كما يليق بجلاله وعظمته، ويداه كما يليق بجلاله وعظمته، ووجهه الكريم كما يليق بجلاله وعظمته، وكيف ينكر الوجه الكريم ويحرّف! وقد قال اللّه سبحانه وتعالى: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلالِ والإِكْرَامِ﴾[1] ، وقال ﷺ في دعائه: «نسألُكَ لذّة النّظرِ إلى وجهِكَ»[2] .

وإذا ثبتت صفة الوجه بهذا الحديث، وبغيره من الآيات والنّصوص، فكذلك صفة اليدين، والضُّحك، والتعجب، ولا يفهم من جميع ذلك إلا ما يليق باللّه- عز وجل بعظمته، لا ما يليق بالمخلوقات من الأعضاء والجوارح، تعالى اللّه عن ذلك علواً كبيراً.

وإذا ثبت هذا الحكم في الوجه، فكذلك في اليدين، والقبضتين، والقدم، والضّحك، والتَّعجُّب، كل ذلك كما يليق بجلال اللّه وعظمته، فيحصل بذلك إثبات ما وصف اللّه به نفسه في كتابه وفي سنة رسولهﷺ.

ويحصل أيضاً نفي التَّشبيه والتَّكييف في صفاته، ويحصل أيضاً ترك

(١) سورة الرحمن الآية ٢٧.
(٢) هو من حديث طويل أخرجه البخاري في صحيحه.

التّأويل والتَّحريف المؤدِّي إلى التّعطيل، ويحصل بذلك أيضاً عدم الوقوف بإثبات الصِّفات وحقائقها على ما يليق بجلال اللّه وعظمته، لاعلى ما نعقل نحن من صفات المخلوقين.

وأما مسألة الحرف والصُّوت فتساق هذا المساق.

فإن اللّه تعالى قد تكلم بالقرآن المجيد بجميع حروفه فقال تعالى: ﴿المص﴾[1] ، وقال: ﴿ق والقُرْآنِ المَجيد﴾[2] .

وكذلك جاء في الحديث: «فيُنادي يومَ القيامةِ بصوتٍ يسمعُه من بعد كما يسمعُهُ من قرب»[3] .

وفي الحديث: «لا أقول: ﴿ألم﴾ حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»[4] . الحاكم في مستدركه. وهو حديث صحيح.

فهؤلاء ما فهموا من كلام اللّه إلا ما فهمه من كلام المخلوقين، فقالوا: إذا قلنا بالحرف، فإن ذلك يؤدي إلى القول بالجوارح واللّهوات، فإنَّهما في جناب الحقِّ لا يحتاجان إلى ذلك.

وهذا ينشرح الصدر له، ويستريح الإنسان به من التَّعسّف والتَّكلّف، بقوله: هذا عبارة عن ذلك.

فإذا قيل: هذا الذي يقرؤه القارىء، هو عين قراءة اللّه، وعين تكلمه هو؟، قلنا: لا، بل القارىء يؤدي كلام اللّه إنما ينسب إلى من قاله مبتدئاً، لا إلى من قاله مؤدِّياً مبلغاً، ولفظ القارىء في غير القرآن مخلوق، وفي

---

(١) سورة.
(٢) سورة ق الآية ١.
(٣) هو من حديث طويل.
(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: (١٨/ ٧٦).

القرآن لا يتميَّز اللَّفظ المؤدِّي عن الكلام المؤدى عنه، ولهذا منع السَّلف عن قول: لفظي بالقرآن غير مخلوق، فإن لفظ العبد في غير التَّلاوة مخلوق، وفي التِّلاوة مسكوتٌ عنه، كيلا يودِّي الكلام في ذلك إلى القول بخلق القرآن وما أمر السَّلف بالسُّكوت عنه، يجب السُّكوت عنه، والله الموفِّق والمعين.

العبد إذا أيقن أنَّ الله فوق السَّماء، عال على عرشه بلا حصر، ولا كيفيَّة، وأنَّه الآن في صفاته كما كان في قدمه، كان لقلبه قبلة في صلاته، وتوجهه، ودعائه. ومن لا يعرف ربه بأنَّه فوق السَّماء على عرشه فإنَّه يبقى ضائعاً لا يعرف وجهة معبوده: لكن ربما عرفه بسمعه، وبصره، وقدمه، وتلك بلا هذا معرفة ناقصة، بخلاف من عرف أن إلهه الذي يعبده فوق الأشياء، فإذا دخل في الصَّلاة وكبر، وتوجه قلبه إلى جهة العرش، منزّهاً له تعالى، مفرداً له كما أفرده في قدمه وأزليته، عالماً أن هذه الجهات من حدودنا ولوازمنا، ولا يمكننا الإشارة إلى ربنا في قدمه وأزليته إلاّ بها، لأنّا مُحَدثون، والمحثُ لا بدَّ له في إشارته إلى جهة، فتقع تلك الإشارة إلى ربه كما يليق بعظمته، لا كما يتوهّمه هو من نفسه.

ويعتقد أنه في علوه قريب من خلقه، وهو معهم بعلمه، وسمعه، وبصره، وإحاطته، وقدرته، ومشيئته، وذاته، فوق الأشياء، فوق العرش، ومتى أشعر قلبه بذلك في الصلاة أشرق قلبه، واستنار، وأضاء بأنوار المعرفة والإيمان، وعكفت أشعة العظمة على قلبه، وروحه، ونفسه، فانشرح لذلك صدره، وقوي إيمانه، ونزّه ربه عن صفات خلقه، من الحصر، والحلول، وذاق حينئذ شيئاً من أذواق السّابقين القربين.

بخلاف من لايعرف وجهة معبوده، وتكون الجارية، راعية الغنم أعلم بالله منه، فإنها قالت: في السماء، عرفته بأنه في السماء، لما قال رسول

اللّه ﷺ: «يا جاريةُ أينَ اللّه»[1] .

قالت: في السماء. وأقرها على ذلك.

فإن «في» تأتي بمعنى «على» كقوله: ﴿يَتِيهون في الأرْضِ﴾[2]،

والرب سبحانه وتعالى كما كان في قِدمهِ وأزليته، وفردانيته، لم يحدث له ذاته ولا في صفاته ما لم يكن في قِدمه وأزليته، فهو الآن كما كان.

لكن لمّا أحدَث المربوبَ المخلوق ذا الجهات، والحدود، والخلاء، والملاء، والفوقية، والتحتية، كان مقتضى حُكْم العظمة للربوبية أن يكون فوقَ مُلكه، وأن تكون المملكة تحته، باعتبار الحدوث من الكون، لا باعتبار القدم من المكوِّن، فإذا أُشير إليه بشيء يستحيل أن يُشار إليه من الجهة التحتية أو من جهة اليمنى أو اليسرى، بل لا يليق أن يشار إليه إلاّ من جهة العلوّ والفوقية، ثم الإشارة في بحسب الكون، وحدوثه، وأسلفه.

فالإشارة تقع على أعلى جزء من الكون حقيقة، وتقع على عظمة الرب تعالى كما يليق به، لا كما يقع على الحقيقة المعقولة عندنا في أعلى جزء من الكون فإنها إشارة إلى جسم، وتلك إشارة إلى إثبات.
إذا علم ذلك فالاستواء: صفة له كانت في قدمه، لكن لم يظهر حكمها إلا عند خلق العرش، كما أن «الحساب» صفة قديمة له لا يظهر حكمها إلا في الآخرة وكذلك «التجلّي» في الآخرة لا يظهر حكمه إلا في محله.

فإذا علم ذلك، فأمر الذي يهرب المتأولون منه، حيث أولوا الفوقية: بفوقية المرتبة.

---

(١) تقدّم تخريجه.
(٢) سورة المائدة الآية ٢٦.

والاستواء: بالاستيلاء، فنحن أشد الناس هرباً من ذلك، وتنزيهاً للباري سبحانه وتعالى عن الحد الذي يحصوه، فلا يحد بحدٍ يحصره، بل بحد تتميز به عظمة ذاته عن مخلوقاته، والإشارة إلى الجهة إنما هو بحسب الكون وأسفله إذ لا يمكن الإشارة إليه إلا هكذا.

وهو في قدمه ـ سبحانه ـ منزّه عن صفات الحدوث، وليس في القدم فوقية ولا تحتية، وإنّ مَنْ هو محصور في التّحت لا يُمكنه معرفة بارئه إلاّ من فوقه، فتقع الإشارة إلى العرش حقيقة إشارة معقولة، وتنتهي الجهات عند العرش، ويبقى ما وراءه لا يُدركُه العقل، ولا يكفيه الوقم، فتقع الإشارة عليه كما يليق به مُجمَلاً، مُثبتاً، لا مكيّفاً ولا ممثّلاً.

بســـم اللّه الرحمـــن الرحيـــم

[نص السؤال الموجّه للإمام ابن تيميّـة]

سُئل: شيخنا وسيِّدنا شيخ الإسلام تقيّ الدِّين أحمد بن عبد الحليم أعاد اللّه تعالى علينا من بركته آمين.

ـ ما تقول في العرش؟ هل هو كروي؟ أم لا؟ فإذا كان كروياً، واللّه من ورائه مُحيط بائن عنه، فما فائدة أن العبد يتوّجه إلى اللّه حين دعائه وعبادته فيقصد العلوّ دون غيره؟ فلا فرق حينئذٍ وقت الدُّعاء بين قصدِ جهة العلوّ وغيرها من الجهات التي تحيط بالدّاعي؟ ومع هذا نجد في قلوبنا قصداً بطلب العلوّ لا يلتفت يمينَهُ ولا يسارَهُ، فأخبِرنا عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا وقد فُطرنا عليها، وابْسطوا لنا الجواب في ذلك (بسطاً شافياً يزيل الشُّبهة ويحقّق الحقّ إن شاء اللّه، أدام اللّه النفع بكم وبعلومكم آمين)(١).

---

(١) ما بين قوسين زيادة من الفتاوى الكبرى.

أجاب رضي الله تعالى عنه:

[نص جواب الإمام ابن تيمية]

الحمد لله رب العالين، الجواب عن هذا بثلاث مقدّمات:

المقدِّمة الأولى

أحداها

إنّه لقائلٍ أن يقولَ: لم يثبتْ بدليل يُعتمد عليه أنّ «العرشَ» فَلَكٌ من الأفلاكِ المستديرةِ الكرويّةِ الشّكل، لا بدليلٍ شرعيٍّ ولا بدليلٍ عقليّ.

وإنّما ذكر طائفة من المتأَخِّرين الَّذين نظروا في «علم الهيئة»[1] وغيره من أجزاء الفلسفة، فرأوْا أن الأفلاك تسعة، وأنَّ التاسع ـ وهو الأطلس[2] ـ مُحيط بها، مُستدير كاستدارتها، وهو الذي يُحركها الحركة المشرقية[3]، وإن كان لكلِّ فلكٍ حركة تخصُّه غير هذه الحركة العامّة.

---

(١) علم الهيئة: هو علم يبحث في حركة الكواكب والنجوم ومنازلها وكميتها، وأقسام البروج، وأبعادها، وعظمها، وما يتبع ذلك.

(٢) الأطلس: هو الظلام الدامس المحيط بالكون من كل أطرافه والذي يُرى بالعين المجردة في ظلمة الليل البهيم وذلك حسبما سمَّوه قديماً وعرَّفوه.

(٣) الحركة المشرقية: هي حركة الكون حول الكرة الأرضية من الشرق إلى الغرب بالشكل الذي نراه إذا راقبنا الشمس والقمر والنجوم من حولنا.

ثم سمعوا في أخبار الأنبياء صلوات اللّه وسلامه عليهم ذِكر «عرش اللّه»، وذكر «كرسيه»، وذكر «السَّموات السَّبع»، فقالوا بطريق الظَّنِّ: أنَّ «العرش» هو الفلك التَّاسع، لاعتقادهم أنه ليس وراءَ ذلك التّاسع شيءٌ، إما مطلقاً، وإما أنه ليس وراءه مخلوق.

ثم إن منهم من رأى أن «التّاسع» هو الذي يُحرِّك الأفلاك كلّها، فجعلوه مبدأ الحوادث، وزعموا أنّ اللّه تعالى يُحدِثُ فيه إما يقدِّره في الأرض، أو يُحدثه في «النّفس» التي زعموا أنَّها متعلِّقة به، أو في العقل الذي زعموا أنَّه الذي صَدَرَ عنه هذا الفلك، وربّما سمّاه بعضهم «الرُّوح»، وربما جعل بعضهم «النَّفس» هي الروح[1] وربما جعل بعضهم ذلك النَّفس هو اللّوح المحفوظ، كما جعل [بعضُهم][2] العقلَ هو القلم.

وتارةً يجعلون «الرُّوح» = اللَّوح، هو: العقل الفعّال العاشر الذي لفلك القمر و«النَّفس» المتعلِّقة به.

وربما جعلوا ذلك بالنِّسبة إلى الحقِّ كالدِّماغ بالنِّسبة إلى الإنسان، يقدّر فيه ما يفعله قبل أن يكون، إلى غير ذلك من المقالات التي قد شرحناها وبيّنا فسادها في غير هذا الموضع[3].

ومنهم من يدَّعي أنه عَلِمَ ذلك بطريق الكشف والمشاهدة[4]، ويكون كاذباً فيما يدَّعيه، وإنما أخذ ذلك عن هؤلاء المتفلسفة تقليداً لهم، أو

---

(١) عبارة: وربما جعل بعضهم «النفس» هي الروح: زيادة من الفتاوى الكبرى.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) كثيرة جداً مواضع بيان شطط الفلاسفة، وفساد آرائهم في كتب ورسائل الإمام ابن تيمية حيث بسطها وردَّ عليها، حتى لا يكاد يخلو من ذلك الكتاب.

(٤) يقصد بذلك الشيخ محيي الدين بن العربي: انظر (الفتوحات ٤/ ٣٢، ٨١ و٢/ ٤٩٦، و٤٩٧ و ٣/ ٤٢٢) (التراجم٢) (عقلة المستوفز ٥٦ ـ ٥٧).

موافقة لهم على طرقهم الفاسدة، كما فعل أصحاب «رسائل اخوان[١] الصفا» وأمثالهم.

وقد يتمثّل في نفسه ما تقلّده عن غيره فيظنّه كشفاً[٢]، كما يتخيَّل النّصراني التّثليث الذي يعتقده، وقد يرى ذلك في منامه فيظنه كشفاً[٣]، وإنما هو تخيّل لما اعتقده، وكثير من أرباب الاعتقادات الفاسدة إذا ارتاضوا صقلت الرّياضة نفوسهم، فتتمثّل لهم اعتقاداتهم، فيظنّوها كشفاً[٤]، وقد بسطنا الكلام على هذا في غير هذا الموضع.

---

(١) يذكر أبو حيان التوحيدي في كتابه «المقابسات» ٤٦ بعض أسماء جماعة إخوان الصفا أن منهم: أبو سليمان محمد بن معشر البستي ويعرف بالمقدس، وأبو الحسن علي بن هارون الزنجاني، وأبو الحسن الصوفي، ومحمد بن أحمد النهرجوني. والجدير بالذكر أن رسائلهم التي أذاعوها بوسائل مختلفة بقيت حتى الآن لاتحمل إسماً من أسماء مؤلفيها. والمهم أن إخوان الصفا: إحدى الجمعيات السرية الإسماعيلية تسودها الاصطلاحات الإسماعيلية وتنتشر فيها الآراء الباطنية من غنوص أفلوطني وغنوص الفيثاغورية المحدثة مع مزيج من عقائد إسلامية وغير إسلامية من مانويه ومزدكية وديصانية، وبقايا مما تركه سقراط وأفلاطون خاصة. انظر (النشأة للنشار ٢/٣٨٨ - ٣٩٢ - وتاريخ الفلسفة العربية لحنا فاخوري ١/٢٥٨ - والمدارس الفلسفية للدكتور فؤاد الأهواني - تاريخ الفلسفة في الإسلام لدي بور ٢٧٦.
ومن أقوال هؤلاء على سبيل المثال قول أحمد بن كيال: العوالم ثلاثة: العالم الأعلى والعالم الأدنى والعالم الإنساني، وقد أثبت في العالم الأعلى خمسة أماكن، الأول: «مكان الأماكن» وهو مكان فارغ لا يسكنه موجود، ولا يدبره روحاني، وهو محيط بالكل، والعرش الوارد في الشرع عبارة عنه، ودونه: مكان النفس الأعلى. . . . إلخ.

(٢) وهذا ما يدركه الباحث المطلع على عقائد الفلاسفة اليونان والغنوص بأنواعها إذا ما قارنها بما يبديه محيي الدين بن عربي من أفكار وآراء وخاصة في كتابه «فصوص الحكم» مدعياً أنها كشوف وإلهامات من الله تعالى.

(٣) وهذا مما أثبته لنفسه الراهب توما الذي ينكر ما يُقال عَنْ صلب المسيح. فرآه في المنام يصافحه وأثر الدم على يده، وعندما استيقظ رأى دماً على يده. فآمن بأن المسيح هو الذي صُلب.

(٤) انظر (ابن عربي) لآسين بلاسيوس، القسم الروحي.

والمقصود هنا: أن ما ذكروه من أن «العرش» هو الفلك التاسع: قد يقال: أنه ليس لهم عليه دليل لا عقلي، ولا شرعي[١].

أما العقلي: فإنَّ أئمة الفلاسفة مُصرِّحون بأنه لم يقم عندهم دليل على أنه ليس وراء الفلك التاسع شيء آخر، بل ولا قام عندهم دليل[٢] على أن الأفلاك هي تسعة فقط، بل يجوز أن تكون أكثر من ذلك[٣]، ولكن دلّتهم الحركات المختلفة والكسوفات، ونحو ذلك على ما ذكروه. وما لم يكن لهم دليل على ثبوته فهم لا يعلمون لاثبوته ولا انتفاءه.

مثال ذلك: أنهم علموا أن هذا الكوكب تحت هذا، بأنَّ السُّفليّ يكشف العلويّ من غير عكس، فاستدّلوا بذلك على أنه ليس من فلكٍ فوقه، كما استدلوا بالحركات المختلفة، على أن الأفلاك مختلفة، حتى جعلوا في الفلك الواحد عدة أفلاك كفلك التّدوير وغيره.

فأما ما كان موجوداً فوق هذا، ولم يكن لهم ما يستدلُّون به على ثبوته: فهم لا يعلمون نفيه ولا إثباته بطريقهم.

وكذلك قول القائل: أن حركة «التّاسع» مبدأ الحوادث خطأ، وضلال على أصولهم[٤]، فإنَّهم يقولون أن «الثّامن» له حركة تخصُّه بما فيه من الثّوابت، ولتلك الحركة قطبان غير قطبي «التّاسع»، وكذلك «السَّابع» و«السّادس».

---

(١) الواقع أن آراءهم نظريات وخيالات لا دليل عليها، بل أثبت العلم والاستقراء الصحيح أنها محض خيال خالفوا بن حقائق الكون وقوانين الفلك.

(٢) على أنه ليس إلا دليل: زيادة من الفتاوى الكبرى.

(٣) الواقع أن الاكتشافات الحديثة أثبتت خطأ ما قالوه، وصحة ما قاله ابن تيمية.

(٤) أي حسبَ قواعدهم وأصولهم التي بنوا نظرياتهم عليها.

وإذا كان لكلٍّ فلك حركة تخصُّه، والحركات المختلفة هي سبب الأشكال الحادثة المختلفة الفلكيَّة، وتلك الأشكال سبب الحوادث السُّفليَّة، كانت حركة التَّاسع جزء السَّبب كحركة غيره.

فالأشكال الحادثة في الفلك، لمقارنة الكوكب للكوكب في درجة واحدة، ومقابلته له إذا كان بينهما «نصف الفلك» وهو مائة وثمانون درجة، وتثليثه له إذا كان بينهما ثلث الفلك وهو مائة وعشرون درجة، وتربيعه له إذا كان بينهما «ربعه» وهو تسعون درجة، وتسديسه له إذا كان بينهما «سُدس الفلك» وهو ستون درجة، وأمثال ذلك من الأشكال ـ إنما حدثت بحركات مختلفةٍ، وكلُّ حركة ليست عين الأخرى، إن حركة «الثامن» التي تخصُّه ليست عين حركة التاسع، وإنْ كان تابعاً له في الحركة الكلية، كالإنسان المتحرك في السَّفينة إلى خلافِ حركتها.

وكذلك حركة «السَّابع» التي تخصُّه ليست عن «التّاسع» ولا عن «الثّامن»، وكذلك سائر الأفلاك، فإن حركة كل واحد التي تخصُّه ليست عمَّا فوقه من الأفلاك، فكيف يجوز أنِ يجعل مبدأ الحوادث كلِّها، مجرد حركة «التّاسع»!! كما زعمه من ظنَّ أنَّهُ العرش[1].

كيف والفلك التّاسع عندهم بسيط، متشابه الأجزاء لا اختلاف فيه أصلاً، فكيف يكون سبباً لأمور مختلفة، لا باعتبار القوابل وأسباب أخر؟

ولكن هم قوم ضالُّون، يجعلونه مع هذا ثلثمائة وستين درجة، ويجعلون لكلِّ درجة من الأثر ما يُخالف الأخرى، لا باختلاف القوابل، كمن يجيء إلى ماءٍ فيجعل لبعض جزئيه من الأثر ما يخالف الآخر لا

---

(١) في الفتاوى ٥٤٩/٦ كما زعمه مَنْ ظن أن العرش كثيف والفلك التاسع عندهم بسيط متشابه الأجزاء لا اختلاف فيه أصلاً.

بحسب القوابل، بل يجعل أحد جزئيه مسخَّناً والآخر مبرِّداً، والآخر مُسعِداً والآخر مُشقِياً، وهذا ممّا يعلمون هم وكلّ عاقل أنّه باطل وظلال.

وإذا كان هؤلاء ليس عندهم ما يَنْفي وجود شيء آخر فوق الأفلاك التسعة، كان الجزم بأن ما أخبرت به الرُّسل من أن العرش هو الفلك التاسع رجماً بالغيب، وقولاً بلا علم.

هذا كله على تقدير ثبوت الأفلاك التسعة على المشهور عند أهل الهيئة، إذ في ذلك من النزاع والاضطراب، وفي أدلة ذلك ما ليس هذا موضعه، وإنما نتكلم على هذا التقدير.

وايضاً فالأفلاك في أشكالها، وإحاطة بعضها ببعض من جنس واحد، فنسبة السّابع إلى السّادس كنسبة السادس إلى الخامس، وإذا كان هناك فلك تاسع فنسبته إلى الثّامن كنسبة الثّامن إلى السّابع؟.

وأما «العرش» فالأخبار تدل على مباينته[1] لغيره من المخلوقات، وأنه ليس نسبته إلى بعضها كنسبة بعضها إلى بعض، قال اللّه تعالى: ﴿الَّذينَ يَحْمِلُونَ الْعَرشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحونَ بحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذينَ آمَنُوا: رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذينَ تابُوا وَاتَّبَعُوا سَبيلَكَ وَقِهِمْ عذاب الْجحيم﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثمانِيَةٌ﴾[3]، فأخبر للعرشِ أن حَمَلَةَ اليوم، ويوم القيامة، وأنَّ حَمَلَتَهُ ومَنْ حَوْله يسبحون ويستغفرون للمؤمنين.

والمعلوم أن قيام فلك من الأفلاك بقدرة اللّه تعالى كقيام سائر

---

(١) ليس له اتصال في المخلوقات.
(٢) سورة غافر، الآيتان: ٧، ٨.
(٣) سورة الحاقة، الآية: ١٧.

الأفلاك لا فرق في ذلك بين فلك وفلك، وإن قدَّر أن لبعضها ملائكة في نفس الأمر تحملها، فحكمه حكم نظيره.

قال اللّه تعالى: ﴿وَتَرى الملائِكَةَ حافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهم بالْحَقِّ وَقِيل الْحَمْدُ للّه رَبِّ الْعَالمين﴾[1] ، فذكر هُنا أنَّ الملائكة تَحِفّ من حوله، وذكر في موضع آخر أن له حَملةً، وجمع في موضع ثالث بين حملته ومن حوله فقال: ﴿الّذين يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾[2] .

وأيضاً فقد أخبر أنَّ عرشَهُ كان على الماء قبل أنْ يخلُق السّموات والأرض كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الّذي خَلَق السَّموات والأرْضَ في سِتّةِ أيّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ على الماءِ﴾[3] .

وقد ثبت في صحيح البخاري وغيره عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ أنّه قال: «كانَ اللّه وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ، وَكانَ عَرْشُهُ على الماءِ، وَكَتَبَ في الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ، وَخَلَقَ السَّمواتِ والأرْضِ» وفي رواية له: «كانَ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَكانَ عَرْشُهُ عَلى الماءِ، ثُمَّ خَلَقَ السّمواتِ والأرْضِ، وَكَتَبَ في الذِّكْرِ كُلَّ شَيءٍ» وفي رواية لغيره صحيحة: «كانَ اللّه وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مَعَهُ، وَكانَ عَرْشُهُ على الماءِ، ثُمّ كَتَبَ في الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ»[4] .

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٧٥.

(٢) سورة غافر، الآية: ٧.

(٣) سورة هود، الآية: ٧.

(٤) البخاري ٧٤١٨ بلفظ: «ولم يكن شيء قبله» و(٣١٩١) وابن خزيمة في كتاب التوحيد ص ٣٧٦، والدارمي في «الرد على الجهمية» ص ١٤، والطبراني في الكبير ١٨ (٤٩٧) و(٤٩٨) و(٥٠٠)، والنسائي في التفسير من «الكبرى» كما في «تحفة الأشراف» ٨/ ١٨٢ بلفظ «كان اللّه ولم يكن شيء غيره» والإمام أحمد في «المسند» ٤/ ٤٣١، ٤٣٢ بلفظ: كان اللّه عز وجل ولم يكن شيء غيره، الفتح ٦/ ٢٨٩، عمدة القاري ١٥/ ١٠٩ (هامش ٢ ص١١٢ شرح=

وثبت في صحيح مسلم عن عبد اللّه بن عمرو عن النَّبيِّ ﷺ أن قال: «إنَّ اللّه قَدّرَ مقاديرَ الخلائِقِ قَبْلَ أنْ يَخْلُقَ السّمواتِ والأرْضَ بخمسينَ ألْفَ سَنَةٍ، وَكانَ عَرْشُهُ على الماءِ»[1] فهذا التَّقدير بَعْدَ وجود العرش، وقبل خلْق السّموات والأرض بخمسينَ ألف سنة.

وهو سبحانه وتعالى متمدّح بأنّه ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدِ﴾[2] كقوله سبحانه: ﴿قُلْ لَوْ كانَ مَعَهُ آلهةٌ كما يَقُولونَ إذاً لابْتَغَوْا إلى ذي الْعَرْشِ سَبِيلاً﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرجَاتِ ذُو العَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبادِهِ، لِيُنْذِرَ يَوْمَ التّلاق، يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ لا يَخْفَى عَلَى اللّه مِنْهُمْ شَيْءٌ، لِمَنِ المُلْكُ اليَوْم؟ للّه الواحِدِ القَهّارِ﴾[4].

وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ الغَفُورُ الوَدُودُ، ذُو العَرْشِ المجيدِ، فَعّالٌ لِما يُرِيدُ﴾[5] وقد قُرِىء ﴿المجيدُ﴾ بالرَّفْعِ صِفَةٌ للّه، وَقُرِىء بالخفض: صفة للعرش.

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السّمواتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظيمِ؟

= العقيدة الطحاوية).

(١) برقم ٣٧٤ وبلفظ: «كتب اللّه مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة..» وأخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» ص٣٧٤ بلفظ: «قدّر اللّه المقادير»، وأخرجه أيضاً بلفظ: «فرغ اللّهُ عز وجل من المقادير وأمور الدنيا قبل أن يخلق السماوات والأرض، وعرشه على الماء، بخمسين ألف سنة». ورواه دون قوله: «وعرشه على الماء» أحمد في مُسنده ٢/١٦٩، والترمذي برقم ٢١٥٦، (انظر الحديث وتخريجه وتعليقاته «شرح العقيدة الطحاوية» ١/١١٣).

(٢) سورة البروج، الآية: ١٥.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٤٢.

(٤) سورة غافر، الآية: ١٥.

(٥) سورة البروج، الآيات: ١٤ ـ ١٦.

سَيَقولونَ للّه قُلْ أفَلا تَتَّقُونَ﴾[1] ، فَوَصَفَ العرشَ بأنه ﴿مجيد﴾ وأنه ﴿عظيم﴾.

وقال تعالى: ﴿فَتَعالى اللّه المَلِكُ الحقُّ لا إلهَ إلاّ هُو رَبُّ العَرشِ الكَريم﴾[2] ، فوصفه بأنه ﴿كريم﴾ أيضاً.

وكذلك في الصحيحين عن ابن عباس رضي اللّه عنهما أن النَّبيَّ ﷺ كان يقول عند الكرب «لاَ إله إلا اللّه العظيم الحليم، لا إله إلاّ اللّه رَبُّ العَرْشَ العَظيم، لا إلهَ إلاّ اللّه رَبُّ السّمواتِ ورَبُّ الأَرْضِ، رَبُّ العَرْشِ الكَرِيم»[3] فوَصفه في الحديث بأنه «عظيم» و«كريم» أيضاً.

فيقول القائل المنزع: «إنّ نسبة الفلك الأعلى إلى ما دونهُ، كنسبة الآخر إلى ما دونه»، فلو كان العرش من جنس الأفلاك لكانت نسبته إلى ما دونه كنسبة الآخر إلى مادونه، وهذا لا يُوجب خروجه عن الجنس وتخصيصه بالذِّكر، كما لم يُوجب ذلك تخصيص سماء دون سماء، وإنْ كانت العُليا بالنِّسبة إلى السفلى، كالفلك على قَوْل هؤلاء.

وإنّما امتاز عما دونَهُ بكونه أكبر، كما تمتاز السّماء العليا على الدُّنيا، بل نسبة السّماء إلى الهواء، ونسبة الهواء إلى الماء والأرض، كنسبة فَلَكٍ إلى فَلَكٍ.

ومَعَ هذا فلا يُخَصُّ واحد من هذه الأجناس عمّا يليه بالذِّكر، ولا

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٨٦ ـ ٨٧.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١١٦.

(٣) البخاري بالأرقام (٦٣٤٥) و(٦٣٤٦) و(٧٤٢٦) و(٧٤٣١)، ومسلم (٢٧٣٠) والترمذي (٣٤٥٣)، وأحمد ٢٢٨/١ و٢٤٥ و٢٥٩ و٢٨٠ و٣٣٩ و٣٥٦، وابن أبي شيبة ١٩٦/٨٠، وابن ماجه ٣٨٨٣، والبخاري في الأدب المفرد (٧٠٠) و(٧٠٢) والطبراني في «الكبير» (١٢٧٥٠) و(١٠٧٧٢).

يوصفه بالكرم والمجد والعظمة.

وقد علم أنّه ليس سبباً لذاتها ولا لحركاتها، بل لها حركات تخصُّها، فلا يجوز أن يُقال أن حركته هي سبب الحوادث، بل إنْ كانت حركة الأفلاك سبباً للحوادث فحركات غيره التي تخصُّه أكثر، ولا يلتزم من كونه محيطاً بها أن يكون أعظم من مجموعها، إلاّ إذا كان له من الغِلَظ ما يقاوم ذلك، وإلاّ فمن المعلوم أنّ الغليظ إذا كان متقارباً، فمجموع الدَّاخل أعظم من المحيط، بل قد يكون بقدر أضعافاً، بل الحركات المختلفة التي ليست عن حركته أكثر، لكن حركته تشملها كلّها.

وقد ثبت في صحيح مسلم عن جُويرية بنت الحارث[1] أن النبي ﷺ دخل عليها وكانت تُسَبِّح بالحصى من صلاة الصبح وقت الضحى فقال: «لَقَدْ قُلْتُ كَلِمَةً تَعْدِلُ كلماتٍ لَوْ وزِنَتْ ما قُلْتِيه لَوَزَنتهُنَّ: سبحان اللّه عدد خلقه سُبحانَ اللّه زِنَةَ عَرْشِهِ، سُبحانَ اللّه رضى نفسه، سُبْحانَ اللّه مِدادَ كَلِماتِهِ»[2].

فهذا يُبيِّن أنّ زنة العرش أثقل الأوزان، وهم يقولون إن الفلك التاسع لا خفيف ولا ثقيل[3]، بل يدل على أنَّهُ وحدَهُ أثقل ما يُمَثَّلُ بِهِ كما أنَّ عددَ

---

(١) هي أم المؤمنين زوجة رسول اللّه ﷺ رضي اللّه عنها، انظر «الإصابة ٨/ ٤٦» دار الكتب العلمية.

(٢) الحديث مع اختلاف في الألفاظ ٤/ ٢٠٩٠، ٢٠٩١، وأبو داود (١٥٠٣)، والترمذي (٣٥٥٠)، والنسائي ٤/ ٧٧، المسند (ط. المعارف ٤/ ٩٧، ٥/ ١٠٤ ـ ١٠٥، والحديث عند مسلم: «لقد قلتُ بعدك، أربع كلمات ثلاث مراتٍ لو وزنت بما قلتِ منذُ اليوم لَوَزَنَتْهنَّ: سبحان اللّه وبحمده عدد خلقه، ورضى نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته» وفي رواية: «سبحان اللّه عدد خلقه، سُبحان اللّه رضى نفسه، سبحان اللّه زنة عرشه، سبحان اللّه مداد كلماته».

(٣) ويقول في كتابه «الإستقامة» بعد إيراد الحديث الشريف: زنة عرشه: وذلك في معرض

المخلوقاتِ أكثر ما يُمثل به.

وفي الصحيحين عن أبي سعيد[1] قال: جاء رجل من اليهود إلى النبي ﷺ قد لُطِمَ وجهُهُ فقال: يا محمد رجلٌ مِنْ أصحابِكَ لَطَمَ وجهي، فقال النبي ﷺ: «أدْعوه»، فقال: «لِمَ لَطَمْتَ وَجْهَهُ» فقال يا رسول الله: إني مررتُ بالسُّوق وهو يقول: والذي اصطفى موسى على البشر، فقلت: يا خبيثَ، وعلى محمد؟ فأخذَتْني غضبةٌ فلطمتُهُ، فقال النبي ﷺ: «لا تَخَيّروا بين الأنبياء فإنّ الناسَ يُصْعَقونَ يَوْمَ القيامَةِ فأكونُ أوّلُ مَنْ يفيقُ فإذا أنَا بموسى آخذاً بقائمةٍ مِنْ قوائِمِ العَرْشِ، فلا أدْري أفاقَ قبلي أمْ جُوزيَ بصعقتِه»[2] ، فهذا فيه بيان أنّ للعَرش قوائم وجاءَ ذِكْرُ القائمة بلفظ السّاق، والأقوال متشابهة في هذا الباب.

وقد أخرجا في الصحيحين عن جابر قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «اهتزَّ عرشُ الرَّحمن لموتِ سعدِ بن معاذ»[3] ، قال: فقال رجل لجابر: أَن البراء[4] يقول: اهتزّ السّرير، قال: إنه كان بين هذين الحيَّيْنْ الأوس

التعظيم لوزن العرش وأنه أعظم المخلوقات وزناً، وذلك يدل على ثقله، كما جاءت بقية الأحاديث بثقله، خلافاً لما يقوله مَنْ يقوله من المتفلسفة أن الأفلاك وما فوقها ليس بثقيل ولا خفيف، بناء على اصطلاح لهم، الثقيل ما تحرك إلى السفل، والخفيف ما تحرك إلي فوق، وإن الأفلاك لا تهبط ولا تصعد، وذلك أن الله أمسكها بقدرته كما أمسك الأرض في مقرها.

(١) هو أبو سعيد الخدري رضي الله عنه، الصحابي الجليل.

(٢) وذلك إشارة لقول الله تعالى في سورة الأعراف الآية ١٤٣: **﴿ولما جاءَ موسى لميقاتنا وكلَّمَهُ ربُّهُ، قال ربِّ أرني أَنْظُر إليكَ، قالَ لَنْ تراني ولكنْ انظر إلى الجبل فإن استقرَّ مكانهُ فسوف تراني، فلما تجلَّى رَبُّهُ للجبلِ جعلهُ دكّاً وخرَّ موسى صَعِقاً فَلما أفاقَ، قال: سبحانكَ تُبْتُ إليكَ وأنا أوّلُ المؤمنينَ﴾**.

(٣)هو سعد بن معاذ بن النعمان بن امرىء القيس بن عبد عبد الأشهل، أبو عمرو الأنصاري، سيد الخزرج مات شهيداً إثر إصابته رضي الله عنه (سير أعلام النبلاء ١/ ٢٧٩).

(٤) وعن البراء رضي الله عنه قال: أُهديت للنبي ﷺ حلةٌ حرير، فجعل أصحابه يمسُّونها

والخزرج ضغائن. سمعت نبي الله ﷺ يقول: «اهتزّ عَرْشُ الرَّحمن لموتِ سعد بن معاذ» ورواه مسلم في صحيحه من حديث أنس أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال: وجنازة سعد موضوعة: «اهتزّ لها عرشُ الرحمنِ»(١).

وعندهم: أنّ حركة الفلك التاسع دائمة مُتشابهة ومن تَأوّل ذلك على أن المراد به استبشار حملة العرش وفرحهم فلا بد له من دليل على ما قال، كما ذكر أبو الحسين الطبري(٢) وغيره: أن سياق الحديث ولفظه ينفي هذا الاحتمال(٣).

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ آمَنْ بِاللّه وَرَسُولِهِ وَأقامَ الصَّلاةَ وآتى الزّكاة وَصَامَ رَمَضان كانَ حَقّاً على اللّه أنْ يُدْخِلَهُ الجنّة، هَاجَرَ في سبيلِ اللّه أوْ جَلَسَ في أرْضِهِ الّتي وُلِدَ فيها». قالوا: يارسول اللّه، أفلا نُبشرٌ الناس بذلك؟ قال: «إنّ في الجنّةِ مائة درجة أعَدّها اللّه للمجاهدين في سبيلِهِ، كُلُّ درجتَيْنْ بينَهُما كما بَيْنْ السّماء والأرْضِ، فإذا سَألْتُمُ اللّه فَسَلُوهُ الفِرْدَوسَ، فإنّهُ أوْسَطُ الجنّة وأعْلى الجنّةِ وفوقه عرش الرَّحمن، ومنه تُفَجَّر أنْهارُ الجنّة»(٤).

ويعجبون من لينها، فقال: «أتعجبون من لين هذه؟ لمناديل سعد بن مُعاذٍ خيرٌ منها، أو ألين»، مما يدل أن الصحابة رضي اللّه عنه رووا بحقٍّ عن رسول اللّه ﷺ.

(١) مسلم برقم ٢٤٦٦.

(٢) هو محمد بن علي بن الطيب، شيخ المعتزلة في وقته، له مؤلفات كثيرة في الكلام وأصول الفقه، توفي سنة ٤٣٦هـ (سير أعلام النبلاء برقم ٣٩٣).

(٣) اهتزاز العرش تحركه فرحاً بهدوم روح سعد، وجعل اللّه تعالى الاهتزاز في العرش تمييزاً حصل به: هذا ولا مانع منه، يقول اللّه تعالى: ﴿وأنَّ منها لما يهبط من خشية اللّه﴾.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه: (٤/١٩) و(٩/١٠٣)، والبيهقي في السنن الكبرى: (٩/١٥)، والهيثمي في موارد الظمآن: (١٨)، والهندي في كنز العمال: (٢٧٥).

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري أن رسول اللّه ﷺ قال: «يا أبا سعيد، مَنْ رَضيَ باللّه ربّاً وبالإسْلام دِيناً، وبمحمّدٍ نبيّاً وجَبَتْ له الجنة»، فعَجِب لها أبو سعيد فقال: أعِدْها عليّ يا رسول اللّه، ففعل ثُمَّ قال: «وَأخرى يُرْفَعُ بها العبدُ مائةَ درجةٍ في الجنّةِ، مَا بين كُلِّ درجتينِ كما بيْنَ السَّماءِ والأرض»، قال: وما هي يارسول اللّه قال: «الجِهادُ في سَبيلِ اللّه»[1].

وفي صحيح البخاري أن أم الربيع بنت البراء[2] وهي أم حارثة بن سراقة أتَتْ النَّبيّ ﷺ فقالت: يا رسول اللّه ألا تُحدِّثني عن حارثة، وكان قُتل يوم بدر ـ أصابه سهم غرْب فإن كان في الحنة صبرتُ، وإن كان غير ذلك اجتهدتُ عليه في البكاء. قال: «يا أُمّ حارثة، إنها جِنان في الجنّةِ وإنّ ابنَكِ أصابَ الفِردوس الأعلى»[3].

فهذا قد بيّن «في الحديث الأوَّل» أنّ العرش فوق الفردوس الذي هو أوْسط الجنة وأعلاها، وإن الجنَّة مائة درجة، ما بينَ كلّ درجتين كما بين السّماء والأرض، والفردوس أعلاها. «والحديث الثاني» يوافقه في وصف الدرج المائة، و«الحديث الثالث» يوافقه في أن الفردوس أعلاها.

وإذا كان العرش فوق الفردوس فلقائل أن يقول: إذا كان كذلك كان في هذا العلو والارتفاع مالم يُعلم بالهيئة[4]، إذا لا يعلم بالحساب أنّ بين

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٣/ ١٥٠١ برقم ١٨٨٤.
(٢) البخاري في الجهاد باب من أتاه سهم غرب (غير معروف مرسِلُهُ) فقتله، وفي المغازي باب فضل من شهد بدراً، وفي الرقاق باب صفة الجنة والنار. وأم الربيع هي الصحابية الجليلة المجاهدة الربيع بنت النضر عمة أنس (الإصابة ٥/ ٢٣١).
(٣) هو سهم غير معروف مُرسِلُهُ، أي: برمْيَةٍ مجهولة.
(٤) أي بعلم الفلك.

التاسع والأول كما بين السّماء والأرض مائة مرة، بل عِنْدهم أن التَّاسع مُلاصِقٌ للثّامن. فهذا قد بين أن العرش فوق الفردوس الذي هو أوسط الجنة وأعلاها.

وفي حديث أبي ذر المشهور[1]، قال: قلتُ يارسول اللّه: أيُّما أُنزل عليك أعظم؟ قال ﷺ: «آية الكرسي»، ثم قال: «يا أبا ذر ما السَّموات السّبع مع الكرسيّ إلاّ كحَلَقَةٍ[2] مُلقاة بأرْضٍ فَلاةٍ، وفضلُ العرش على الكرسيّ كفضل الفلاة على الحَلَقَةِ».

والحديث له طرق، وقد رواه أبو حاتم بن حبّان في صحيحه، وأحمد في المسند وغيرهما[3].

وقد استدلّ من استدلّ على أنّ «العرش مُقبَّبٌ» بالحديث الذي في سنن أبي داود وغيره[4]: عن جُبير بن مُطعِم [عن أبيه عن جده] قال: أتى رسول اللّه ﷺ أعرابيٌّ فقال: يا رسول اللّه، جَهِدت[5] الأنفُسُ، وجاعَ العيالُ، وهَلَكَ المال، فأدْعُ اللّه لنا. فإنّا نستشفعُ بِكَ على اللّه، ونستشفعُ باللّه عليكَ. فسبَّح رسول اللّه ﷺ حتى عُرف ذلك في وجوه أصحابه وقال: «وَيْحَكَ، أتَدْري ما تقول؟ إنّ اللّه لا يُستشفَعُ به على أحَدٍ من خلقه. شأنُ اللّه أعظَمُ من ذلكَ، إنّ اللّه على عرشه، وإن عرشه على

---

(١) ٣٧٠ كالآتي: ضعيف أخرجه ابن جرير في تفسيره (٥٧٩٤) من طريق يونس، قال أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد: حدثني أبي قال: قال أبو ذر: . . . . .

(٢) أي: كحلقة الخاتم (النهاية: لاين الأثير ١/ ٤٢٦).

(٣) مسند الإمام أحمد ١٢٨/٥، ١٤٢، ٢٧٨، وأخرجه الشيخ الألباني في «صحيحه» برقم ١٠٩.

(٤) أبو داود برقم (٤٧٢٦)، وابن خزيمة في كتاب التوحيد ص ١٠٣ ـ ١٠٤، والدارمي في الرد على الجهمية ص٢٤، البيهقي في الأسماء والصفات ص ٤١٧ ـ ٤١٨.

(٥) بلغت فيه المشقة غايتها وتُقال أجدب الناس وامتنعت الأمطار.

سماواته، وأرضه لهكذا ، وقال بأصابعه مثل القبة»، وفي لفظ «وأنّ عرشه فوق سماواته، وسماواته فوق أرضه، لهكذا»[1] وقال بأصابعه مثل القبة.

وهذا الحديث وإن دلَّ على التقبُّبِ، وكذلك قوله عن الفردوس «إنها أوسط الجنة وأعلاها» مع قَوْله «وإن سَقفها عرش الرحمن» و«أن فوقها عرش الرّحمن» والأوسط لا يكون الأعلى إلا في المستدير [الكروي]، فهذا لا يدلُّ على أنَّه فلك من الأفلاك، بل إذا قُدِّرَ أنه فوق الأفلاك كلها أمكن هذا فيه، سواءَ قال القائل: أنه مُحيط بالأفلاك، أو قال: إنه فوقها. وليس يُحيط بها، كما أنَّ وجه الأرض فوق النِّصف الأعلى من الأرض، وإن لم يكن مُحيطاً بذلك، وقد قال إياس بن معاوية[2] : السّماء على الأرض مثل القبة. ومعلوم أن الفلك مستدير مثل ذلك، لكن لفظ القبة يستلزم استدارة من العلو، لا يستلزم استدارة من جميع الجوانب إلا بدليل مفصَّل.

ولفظ «الفلك» يُستدل به على الاستدارة مطلقاً، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذي خَلَقَ اللَّيْلَ والنَّهار والشَّمْس وَالْقَمَر كُلٌّ في فَلَكٍ يسْبحونَ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿لا الشَّمْس يَنْبَغي لَها أَنْ تُدْرِكَ القَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ وَكُلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحونَ﴾[4] يقتضي أنها في فلك مستديرة مطلقاً.

كما قال ابن عباس رضي اللّه تعالى عنه: في فلكة مثل فَلَكَةِ

---

(١) أبو داود (٤٧٢٦)، ابن خزيمة في «التوحيد» ص١٠٣، الدارمي في «الرد على الجهمية» ص ٢٤، البيهقي في الأسماء والصفات ص ٤١٧.

(٢) هو إياس بن معاوية بن قرة المزني، أبو وائلة، قاضي البصرة من المشهورين بالفراسة والفطنة والذكاء، للمدائني فيه كتاب سماه «زكاء إياس»، توفي بواسط سنة ١٢٢هـ الموافق ٧٤٠م (البيان والتبيين ١/٩٨، طبعة القاهرة لجنة التأليف، وفيات الأعيان ١/٨١، الأعلام ٢/٣٣).

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٣٣.

(٤) سورة يس، الآية: ٤٠.

المِغْزل[١].

وأما لفظ القُبة: فإنَهُ لا يتعرَّض لهذا المعنى، لا بنفي ولا إثبات، لكن يدلُّ على الاستدارة من العلوّ، كالقبة الموضوعة على الأرض.

وقد قال بعضهم: إن الأفلاك غير السموات، لكن ردَّ عليه غيره هذا القول، بأن اللّه تعالى قال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللّه سَبْعَ سَموات طِباقاً وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجَاً﴾[٢] فأخبر أنه جعل القمر فيهن، وقد أخبر أنّه في الفلك[٣] وليس هذا موضع بسط الكلام في ذلك.

وتحقيق الأمر فيه وبيان أنّ ما عُلم بالحساب علماً صحيحاً لا يُنافي ما جاء به السّمع، وأنّ العلوم السمعية الصحيحة لا تُنافي معقولاً صحيحاً، إذْ قد بسطنا الكلام على هذا وأمثاله في غير هذا الموضع[٤]، فإن ذلك يحتاج إليه في هذا ونظائره مما قد أشكل على كثر من النّاس، حيث يرون ما يقال أنه معلوم بالعقل، مُخالفاً لما يُقال أنّهُ معلومٌ بالعقل، مُخالفاً لما يُقال أنَّهُ معلومٌ بالسّمع، وأوجب ذلك أنْ كَذبَتْ كل طائفة بما لم تُحِطْ بعلمه، حتى آل الأمر بقوم من أهل الكلام أنْ تكلّموا في معارضة الفلاسفة في الأفلاك بكلامٍ ليس معهم به حجة لا من شرعٍ ولا من عقلٍ، وظنُّوا أنّ

---

(١) المغزل آلة قديمة بسيطة استعملت لغزل القطن وجعله خيوطاً وفلكتها تشبه الإجاصة إلى حدٍّ بعيد.

(٢) سورة نوح، الآية: ١٦.

(٣) يدور القمر في فلكه ضمن السموات السبع، وضمن السماء الأولى بالتحديد إذا اعتبرنا السماء الأولى كرةً، الشمس والقمر والنجوم والكواكب والأرض تدور بداخلها، وتأتي السموات الست من فوقها كرات أكبر تحويها. كمثل حبة البصل قشرتها الخارجية كالسماء السابعة (مع فارق التشبيه).

(٤) يمكن مراجعة ذلك في فتاوى الإمام تيمية الكبرى الجزء ٣٦ الفهارس. وجاء كتابه «موافقة صحيح المنقول لصحيح المعقول».

ذلك من نصر الشّريعة، وكان ما جحدوه معلوماً بالأدلّة الشرعية أيضاً.

وأما «المتفلسِفَةُ وأتباعهم» فغايتهم أنْ يستدلُّوا بما شاهدوه من الحسيات[١]، ولا يعلمون ما وراء ذلك، مثل أن يعلموا أنّ البخار المتصاعد ينعقد سحاباً، وأنّ السّحاب إذا اصطكَّ حدث عنه صَوْتٌ به، ونحو ذلك، لكن علمهم بهذا كعلمهم بأن المنيّ يصير في الرحم (جنيناً)، لكن ما المُوجب للمنيّ المتشابه الأجزاء أن يخلق منه هذه الأعضاء المختلفة، والمنافع المختلفة، على هذا الترتيب المحكم المتقن الذي فيه من الحكمة والرحمة ما بَهَرَ الألباب.

وكذلك ما الموجب لأنْ يكون هذا الهواء أو البخار منعقد سحاباً مقدَّراً بقدَرٍ مخصوص، في وقت مخصوص، على مكان يختص به، وينزل على قوم عند حاجتهم إليه، فيَسقيهم بقدرِ الحاجة لا يزيد فيهلكوا، ولا ينقص فيعُوزوا.

وما الموجب لأنْ يُساق إلى الأرض الجُرُز[٢] التي لا تمطر، أو تمطر مطراً لا يغنيها، كأرض مصر، إذ كان المطر القليل لا يكفيها والكثير يهدم أبنيتها، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الماءَ إلى الأَرْضِ الجُرُزِ فَنَخْرِجُ بِهِ زَرْعَاً تأْكُلُ مِنْهُ أنْعامُهُمْ أفلا يُبْصِرونَ﴾[٣].

وكذلك السّحاب المتحرِّك، وقد علم أن كل حركة فإمّا أن تكون قسريّة[٤]، وهي تابعة للقاسر، أو طبيعيّة، وإنما تكون إذا خرج

---

(١) أي من الأشياء المحسوسة التي تدرك ولو بإحدى الحواس الخمس (السمع ـ البصر ـ الذوق ـ اللمس ـ الشم).

(٢) الأرض الجرز: الأرض التي لا تُنبت. أو لم يُصبها مطرٌ.

(٣) سورة السجدة، الآية: ٢٧.

(٤) أي تتحرك بقوة محرك على غير قاعدتها.

المطبوع[1] من مركزه، فيطلب عوده إليه، أو إرادته وهي الأصل، فجميع الحركات تابعة للحركة الإرادية التي تصدر عن ملائكة اللّه تعالى التي هي ﴿المدبِّراتِ أمراً﴾[2] ﴿والمقسمات أمراً﴾[3]، وغير ذلك مما أخبر اللّه تعالى به عن الملائكة، وفي المعقول ما يصدِّق ذلك.

فالكلام في هذا وأمثاله له موضع غير هذا.

والمقصود هنا أنْ نبيِّن أنّ ما ذكر في السُّؤال زائل على كل تقدير فيكون الكلام في الجواب مبنياً على حجج علميّة لا تقليديّة، ولا مسلَّمة، وإذا بيّنا حصول الجواب على كل تقدير ـ كما سنوضّحه ـ لم يضرّنا بعد ذلك أن يكون بعض التقديرات هو الواقع، وإن كنا نعلم ذلك، لكن تحرير الجواب على تقديرٍ دون تقدير، وإثبات ذلك فيه طول لا يُحتاج إليه هنا، فإن الجواب إذا كان حاصلاً على كل تقدير كان أحسن وأوجز.

(١) على قاعدة ثابتة وسنة لا تتبدل.

(٢) يتبع الهامش التالي.

(٣) انظر سورة النازعات، الآية: ٥ قول اللّه تعالى: ﴿فالمدّبِّرات أمْرَاً﴾ وقوله تعالى: ﴿فالمقسمات أمراً﴾ في سورة الذاريات، الآية: ٤.

المقام الثاني

أنْ يُقال: «العرشُ» سواء كان وهو الفلك التاسع، أوْ جسماً مُحيطاًبالفلك التّاسع، أوْ كان فوقه من جهة وجه الأرض محيطاً به، أو قيل فيه غير ذلك، فيجب أنْ يعلم أنّ العالم العُلوي والسّفلي بالنِّسبة إلى الخالق تعالى في غاية الصّغر، كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللّه حَقَّ قَدْرِهِ والأرْضُ جميعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ والسّمواتُ مَطْوِيّاتٌ بِيَمينِه سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمّا يُشْرِكُونَ﴾[١].

وفي الصحيحين، عن أبي هريرة عن النّبيِّ ﷺ، قال: «يَقْبضُ اللّه تَبارَكَ وتعالى الأرْضَ يومَ القيامةِ، وَيَطْوي السَّماءَ بيمينِه، ثم يقول: أنا الملكُ، أيْنَ مُلُوكُ الأرْضِ»[٢].

وفي الصحيحين واللفظ لمسلم ـ عن عبد اللّه بن عمر: قال رسول اللّه ﷺ: «يطوي اللّه السّموات يوم القيامة، ثم يأخذُهُنَّ بيدِهِ اليُمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبّارون، أين المتكبرون؟ «ثم يطوي الأرضين بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون»[٣].

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٧.
(٢) مسلم ٢١٤٨/٤ برقم ٢٧٨٧، البخاري برقم ٢٠٣٩ (طبعة فؤاد عبد الباقي).
(٣) صحيح مسلم ٢١٤٨/٤ برقم ٢٧٨٨ والبخاري برقم ٢٦٠٠ (طبعة فؤاد عبد الباقي).

وفي لفظ في الصّحيح عن عبيد اللّه بن مقْسم أن نظر إلى عبد اللّه ابن عمر كيف يحكي أنّ النبي ﷺ قال: «يأخذ اللّه عز وجل سماواته وأرضه بيده، ويقول: «أنا الملك»، ويقْبض أصابعه ويبسطها، «أنا الملك»[1] حتى نظرتُ إلى المنبر يتحرَّكُ من أسفلِ شيءٍ منه، حتى أني أقول أساقط هو برسول اللّه ﷺ؟!.

وفي لفظ قال: «رأيتُ رسول اللّه ﷺ على المنبر وهو يقول: يأخُذُ الجبارُ سماواتِهِ وأرْضِه ـ وَقَبَضَ بيده وجعل يقبضها ويبسطها ـ ويقول: أنا الرّحمن، أنا الملك، أنا القدوس، أنا السّلام، أنا المؤمن، أنا المهيمن، أنا العزيز، أنا الجبار، أنا المتكبِّر، أنا الّذي بدأْتُ الدُّنيا ولم تكُ شيئاً، أنا الذي أعدتها، أين الملوك؟ أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟»[2] يميل رسول اللّه ﷺ على يمينه وعلى شماله، حتى نظرتُ إلى المنبر يتحرّك من أسفل شيء منه، حتى أني لأقول أساقِطٌ هو برسول اللّه ﷺ؟!.

والحديث مرويٌّ في الصحيح المسانيد وغيرها بألفاظ، يصدق بعضها بعضاً.

وفي بعض ألفاظه قال: قرأ على المنبر ﴿والأرضُ جميعاً قبضتهُ يَوْمَ القِيامةِ﴾[3] الآية، قال مطويةٌ في كفِّهِ يرمي بها كما يرمي الغلام

---

(١) صحيح مسلم ٢١٤٨/٤ برقم ٢٧٨٨ الحديث الذي يليه. وقد رواه معلقاً في التوحيد: باب قوله تعالى: ﴿لما خلقت بيدي﴾ اي: من أسفله إلى اعلاه، لأن بحركة الأسفل يتحرك الأعلى، ويحتمل أن تحركه بحركة النبي ﷺ بهذه الاشارة، ويحتمل أن يكون تحركه بنفسه تحرك نفسه هيبة لسمعه، كما حنى الجذع إليه ﷺ. قال النووي.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: (٢١٤٩)، والطبراني في المعجم الكبير: (٣٥٥/١٢).

(٣) سورة الزمر، الآية: ٦٧.

بالكرة»[1] .

وفي لفظ: «يأخذ الجبار سماواته وأرضه بيده فيجعلها في كفه[2] ، ثم يقول بها هكذا كما تقول الصِّبيان بالكرة، أنا اللّه الواحد»[3] .

وقال ابن عباس: «يقبض اللّه عليهما فما يُرى طرفاهما بيده»[4] .

وفي لفظ عنه: «ما السّموات السبع، والأرضون السّبْعُ، وما فيهنَّ، وما بينهنّ، بيد الرّحمن إلاّ لخردلة في يد أحدكم»[5] وهذه الآثار معروفة في كتب الحديث.

وفي الصّحيحين[6] عن عبد اللّه بن مسعود قال: أتى النَّبيّ ﷺ رجل يهودي، فقال: يا مُحمد إنّ اللّه يجعل السموات على أُصبع، والأرضين على أُصبع، والجبال والشّجر على أُصبع، والماء والثرى على أُصبع، وسائر الخلق على أُصبع ﴿فيهزّهن﴾ فيقول: أنا الملك، أنا الملك، قال: فضحكَ النبي ﷺ حتى بَدَتْ نواجذه تصديقاً لقول الحبر[7] ثم قَرَأ: ﴿وما قَدَرُوا اللّه حَقّ قَدْرِهِ والأَرْضُ جميعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَة﴾[8] إلى آخر الآية.

---

(١) لم أجد الحديث في هذا اللفظ في أغلب الصحاح والمسانيد المطبوعة.

(٢) إذا صح الحديث فالكف صفة كما أن اليد صفة اللّه عز وجل.

(٣) يتبع الهامش رقم (١).

(٤) يتبع الهامش رقم (١).

(٥) لم أجد الحديث في هذا اللفظ في غالب الصحاح والمسانيد المطبوعة.

(٦) البخاري في تفسير سورة الزمر: باب قوله (وما قدر واللّه حق قدره)، وفي التوحيد: باب قوله ﴿لما خلقت بيدي﴾، وباب قوله: ﴿إن اللّه يمسك السماوات والأرض... ﴾ وباب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء، وسلم في صفة القيامة برقم ٢٧٨٦.. والترمذي برقم ٣٢٣٩ في التفسير: باب من سورة الزمر.

(٧) الحبر: العالم.

(٨) سورة الزمر: ٦٧.

ففي هذه الآية والأحاديث الصّحيحة المفسّرة لها المستفيضة التي اتفق أهل العلم على صحتها، وتلقّيها بالقبول، ما يبيِّن أن السَّموات والأرض وما بينهما بالنِّسبة إلى عظمة اللّه تعالى أصغر من أن تكون مع قبضه لها إلاّ كالشيء الصّغير في يد أحدنا، حتى يدحوها[1] كما تُدحى الكرة.

قال عبد العزيز بن عبد اللّه بن أبي سَلَمَة الماجشون الإمام ـ نظير مالك[2] ـ في كلامة المشهور الذي ردّ فيه على الجهْمية[3]، ومن حالفها، قال: فأمّا الذي جَحَدَ ما وصف الرَّبُ من نفسه تعمُّقاً وتكلُّفاً قد استهوَتْهُ الشَّياطين في الأرض حيران، فصار يستدلّ بزعمه على جحد ما وصف الرَّبّ وسمَّى من نفسه، بأنْ قال: لابدَّ إن كان له كذا، من أن يكون له كذا، فَعَمِيَ عن البَيِّنِ بالخفيِّ، فَجحد ما سمّى الرَّبّ من نفسه، فصمتُ الربُّ عما لم يسم منها، فلم يزل يمثل له الشَّيطان حتى جحد قول اللّه تعالى: ﴿وجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ، إلى رَبِّها ناظِرَةٌ﴾[4] فقال: لا يراهُ أحدٌ يوم القيامة، فجحدوا ـ واللّه ـ أفضل كرامته التي أكرم اللّه أوْلياءه يوم القيامة، من النَّظر إلى وجهه، ونظرته له إياهم: ﴿في مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مليكٍ مُقْتَدِرٍ﴾[5]. وقد قضى أنهم لا يموتون، فهم بالنَّظر إليه ينضرون.

---

(١) يدحوها: يكوِّرها، ويقرُّصها، انظر (النهاية في غريب الحديث ٢/١٠٦).

(٢) هو مفتي المدينة المنورة وعالمها مع الإمام مالك بن أنس إمام المالكية توفي سنة ١٦٤ هـ، وهو معتمد لدى جميع علماء أهل السنة والجماعة.

(٣) الجهمية: أتباع جهم بن صفوان، وهو من الجبرية الخالصة، من أقواله أنه لا يجوز أو يوصف الباري تعالى بصفة يوصف بها خلقه، لأن ذلك يقضي تشبيهاً، فنفي كونه حالياً عالماً رؤوفاً رحيماً، وأنكر الخلود في الجنة والنار. قُتل سنة ١٢٤هـ.

(٤) سورة القيامة، الآية: ٢٢.

(٥) سورة القمر، الآية: ٥٥.

إلى أن قال ـ وإنما جحدوا رؤية اللّه يوم القيامة، إقامة للحجة الضالّة المضلّة، لأنه قد عرف إذا تجلّى لهم يوم القيامة رأوْا منه ما كانوا به قبل ذلك مؤمنين، وكان له جاحداً.

وقال المسلمون: يا رسول اللّه، هل نرى ربّنا يوم القيامة؟ فقال رسول اللّه ﷺ: «هل تضارُّون في رؤية الشمس ليس دونها سحاب؟» قالوا: لا، قال: «فهل تضارُّون في رؤية القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟» قالوا: لا، قال: «فإنّكم تَرَوْنَ ربّكُم كذلك»[1].

وقال رسول اللّه ﷺ: «لا تمتلىء النّارُ حتى يضع الجبار فيها قدَمَهُ فتقول: قط، قط، وينزوي بعضها إلى بعض»[2].

وقال لثابت بن قيس[3] «قد ضحِكَ اللّه مِمَّا فعلتَ بضيفِكَ البارحة»[4] وقال فيما بلغنا عنه ـ «إن اللّه يضحك من أن أزلكم ذلك وقنوطكم وسرعة إجابتكم»[5] وقال له رجل من العرب: إنَّ ربنا يضحك؟! قال: «نعم» قال: لن نعدم من رب يضحك خيراً[6].

---

(١) البخاري في التوحيد ٢٤، وفي الرقاق ٥٢، ومسلم في الإيمان برقم ٢٩٩، وأبو داود برقم ٤٧٣٠، والترمذي برقم ٢٥٦٠، ومسند الإمام أحمد ٢/ ٢٧٥، ٢٩٣، ٣٦٨، ٥٢٤.

(٢) البخاري في التفسير، تفسير سورة ٥٠، وفي التوحيد ٢٥، ومسلم في الجنة، باب ٣٥، ٣٦، ومسند الإمام أحمد ٢/ ٢٧٦، ٣١٤، ٥٠٧.

(٣) وفي رواية أنه أبو طلمة زيد بن سهل الأنصاري رضي اللّه عنه.

(٤) في البخاري في فضائل الصحابة: باب قوله تعالى: ﴿ويؤثرون على أنفسهم...﴾ «ضحك اللّه الليلة، أو عجب من فعالكما، وفي مسلم في الأشربة، باب اكرام الضيف برقم ٢٠٥٤.

(٥) يتبع الهامش التالي (٦).

(٦) الحديث كما رواه الإمام أحمد في مسنده: عن أبي رزين قال: قال رسول اللّه ﷺ: «ضحك ربنا من قنوط عباده وقرب غيره» قال: قلت: يارسول اللّه، أيعذ أو يضحك الرب عز

وفي أشباه لهذا مما لم نحصه.

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ السَّميعُ البَصيرُ﴾[1] ﴿واصبِرْ لِحُكْمِ ربِّك فإنَّك بأعْيُننا﴾[2] وقال: ﴿وَلِتُصْنَعَ على عَيْني﴾[3] وقال ﴿ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[4] وقال تعالى: ﴿وَالأرْضُ جَميعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ والسَّمواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمينِهِ سُبْحانَهُ وتَعالى عَمَّا يُشْرِكُون﴾[5]

فواللّه ما دلّهم على عظم ما وصف به نفسه، وما تُحيط به قبضته إلاّ صغر نظيرها منهم، عندهم أنّ ذلك الذي أُلْقي في روعهم وخلق على معرفته قلوبهم.

فما وَصَفَ اللّه من نفسه وسمّاه على لسان رسوله سمَّيناه، ولم نتكلَّف فيه عِلْمَ ما سواه لا هذا ولا هذا، لا نجحدُ ما وصف، ولا نتكلّفُ معرفة ما لم يصف. انتهى.

وإذا كان كذلك فإذا قدر أنَّ المخلوقات كالكرة فهذا قبضُهُ لها، ورميه بها، وإنما بيَّن لنا من عظمته، وصف المخلوقات بالنسبة إليه، ما يعقل نظيره منا.

ثم الّذي في القرآن والحديث يبين أنه إن شاء قبضها وفعل بها ما ذكر، كما يفعل ذلك يَوْمَ القيامة، وإن شاء لم يفعل ذلك، فهو قادِرٌ على أنْ يقبضها ويدحوها كالكرة، وفي ذلك من الإحاطة بها مالا يخفى، وإن

وجل، قال: «نعم» قال: لن نعدم من ربٍّ يضحك خيراً.

(١) سورة الشورى الآية ١١.

(٢) سورة الطور الآية ٤٨.

(٣) سورة طه الآية ٣٩.

(٤) سورة الأعراف الآية ١٢.

(٥) سورة الزمر، الآية: ٦٧.

شاء لم يفعل ذلك، وبكلٍّ حال فهو مُباينٌ لها ليس بمحايث لها[1] .

ومن المعلوم أن الواحد منا - ولله المثل الأعلى - إذا كان عنده خردلةٌ، إن شاء قبضها فأحاطت بها قبضته، وإن شاء لم يقبضها بل حوَّلها[2] تحته فهو في الحالتين مُباينٌ لها.

وسواء قدر: أنّ العرش هو محيط بالمخلوقات كإحاطة الكرة بما فيها، أو قيل: أنه فوقها وليس محيطاً بها، كوجه الأرض الذي نحن عليه بالنِّسبة إلى جوفها، وكالقبّة بالنِّسبة إلى ما تحتها أو غير ذلك، فعلى التقديرَيْن يكونُ العرشُ فَوْقَ المخلوقات، والخالق سبحانه وتعالى فوقَهُ، والعبد في توجهه إلى الله يقصدُ العلو دون التحت.

وتمام هذا بيان (المقام الثّالث).

---

(١) أي: بمخالط (انظر معجم مقاييس اللغة «حسي»).

(٢) في الفتاوى الكبرى: جعلها.

المقام الثالث

وهو أنْ نقول: لا يخلو إما أن يكون العرش كروياً كالأفلاك، ويكون مُحيطاً بها، وإما أن يكون فوقها وليس هو كروياً.

فإن كان الأول: فمن المعلوم باتّفاق من يعلم هذا أنّ الأفلاك مُستديرة كرويَّة الشَّكل، وأن الجهة العليا هي جهة المحيط، وهو المحدَّب، وأن الجهة السّفلى هي المركز، وليس للأفلاك إلاّ جهتان: العلوّ والسّفل فقط.

وأما الجهات السّتّ فهي للحيوان، فإنّ له ستّة جوانب، يَؤُمّ جهة فتكون أمامه، ويخلف أخرى فتكون خلفه، وجهة تحاذي يمينه، وجهة تحاذي شماله[1] ، وجهة تحاذي رأسَهُ، وجهة تحاذي رجليه. وليس لهذه الجهات السّت في نفسها صفة لازمة، بل هي بحسب النِّسبة والإضافة، فيكون يمين هذا ما يكون شمالُ هذا، ويكون أمام هذا ما يكون خلف هذا، ويكون فوق هذا ما يكون تحت هذا.

لكنَّ جهة العلّو للأفلاك لا تتغير، فالمحيط هو العلو، والمركز هو السّفل، مع أنّ وجه الأرض التي وضعها اللّه للأنام، وأرساها بالجبال هو الذي عليه النّاس والبهائم، والشّجر والنّبات، والجبال والأنهار الجارية.

فأما النّاحية الأخرى من الأرض، فالبحر مُحيط بها، وليس هناك

---

(١) في الفتاوى الصغرى: يساره.

شيء من الآدميين وما يتبعهم. ولو قدّر أن هناك أحد لكان على ظهر الأرض ولم يكن مَنْ في هذه الجهة تحت مَنْ في هذه الجهة، ولا مَنْ في هذه تحت مَنْ في هذه، كما أن الأفلاك محيطة بالمركز وليس أحد جانبي الفلك تحت الآخر، ولا القطب الشّمالي تحت الجنوبي ولا بالعكس، وإن كان الشّمالي هو الظّاهر لنا فوق الأرض وارتفاعه بحسب بُعْد الناس عن خط الاستواء، فما كان بعدُهُ عن خط الاستواء ثلاثين درجة مثلاً، كان ارتفاع القطب عنده ثلاثين درجة، وهو الذي يُسمّى عرض البلد.

فكما أنّ جوانب الأرض المحيطة بها، وجوانب الفلك المستدير ليس بعضها فوق بعض، ولا تحتَهُ، فكذلك مَنْ يكونُ على الأرْضِ من الحيوان والنّبات والأثقال لا يُقال أنّهُ تحتَ أُولئك، وإنّما هذا خيال يتخيّلَهُ الإنسان، وهو تحتٌ إضافيّ، كما لو كانت نملَةٌ تمشي تحت سقف، فالسَّقف فوقَه، وإن كانت رجلاها تحاذيه، وكذلك مَنْ عُلِّق منكوساً فإنه تحت السَّماء، وإن كانت رجلاه على السّماء، وكذلك قد يتوهَّم الإنسان إذا كان في أحَدِ جانبي الأرض أو الفلك أن الجانب الآخر تحتَهُ.

وهذا أمر لاَ يتنازع فيه إثنان ممّن يقول أنّ الأفلاك مُستديرة.

واستدارة الإفلاك كما أنه قول أهل الهيئة والحساب، فهو الذي عليه عُلماء المسلمين كما ذكرة أبو الحسين بن المنادي[1] وأبو محمد بن

---

(١) هو أحمد بن جعفر، أبو الحسن بن المنادي، عالم بالتفسير والحديث، صنف في علوم القرآن الكريم. المئات من الكتب، قال عنه ابن الجوزي: من وقف على مؤلفاته علم فضله واطلاعه، توفي سنة ٣٣٦هـ.

حزم[1] وأبو الفرج ابن الجوزي[2] وغيرهم أنّه مُتفق عليه بين علماء المسلمين.

وقد قال تعالى: ﴿وَهُوَ الّذي خَلَقَ اللّيْلَ وَالنّهارَ والشّمْسَ وَالْقمَرَ كُلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُون﴾[3]، قال ابن عباس: في فَلَكة مثل فَلْكةِ المِغْزَل.

و«الفلك في اللغة»: هو المستدير ومنهُ قولُهم: تفلّك ثَدْيُ الجارية: إذا استدارَ. وكلُّ مَنْ جَعَل الأفلاكَ مُستديرةً يعلمُ أنّ المحيط هو العالي على المركزِ في كل جانب. وَمَنْ توهم أنّ مَنْ يكون في الفلك من ناحية يكون تحته من في الفلك من الناحية الأخرى في نفس الأمر فهو متوهِّم عندهم.

وإذا كان الأمر كذلك فإذا قُدِّر أنّ العرش مستديرٌ محيطٌ بالمخلوقات كان هو أعلاها وسقفها وهو فوقها مُطلقاً، فلا يَتَوَجَّه إليه، وإلى ما فوقَهُ الإنسانُ إلاّ من العلوِّ لا من جهاته[4] الباقية أصلاً.

ومَنْ توجَّهَ إلى الفلك التاسع، أو الثامن، أو غيره من الأفلاك، من غير جهة العلو، كان جاهلاً باتِّفاق العقلاء، فكيف بالتوجُّه إلى العرشِ أو

---

(١) هو أبو محمد علي بن أحمد بن حزم، أحد كبار أئمة المسلمون في الأندلس. نُسب إليه خلق كثير، كانت له ولأبيه رئاسة الوزارة وتدبير المملكة، ثم انصرف للعلم فعُرف وزات مصنفاته على ٤٠٠ كتاباً، توفي سنة ٤٥٦هـ.

(٢) هو عبد الرحمن بن علي بن الجوزي الإمام، صاحب المصنفات الكثيرة والجيدة منها تفسير «زاد المسير» توفي ببغداد سنة ٥٩٧هـ.

(٣) سورة . . . .

(٤) في الفتاوى الصغرى: جهته.

إلى ما فوقَهُ، وغاية ما يقدر أنْ يكونَ كروي الشكل والله تعالى مُحيط بالمخلوقات كلها إحاطة تليقُ بجلالِهِ فإنّ السّموات السّبْع والأرض[1] في يده أصغر من الحمصة في يد أحدنا.

(١) كلمة «الأرض»: زيادة من الفتاوى الكبرى.

التّوجه والدعاء

وَأمّا قولُ القائل: إذا كان كروياً واللّه من ورائه محيط به بائِنٌ عنه، فما فائدة أنّ العبدَ يتوجَّهُ إلى اللّه حين دُعائه وعبادته، فيقصدُ العلوَّ دون التَحْتِ، فلا فرق حينئذٍ وَقْتَ الدُّعاءِ بين قصد جهة العلوِّ وغيرها من الجهات التي تُحيط بالداعي؟ ومع هذا نجد في قلوبنا قَصْداً بطلبِ العلوِّ، لا يلتفت يُمْنَةً ولا يُسْرَةً، فأخبرونا عن هذه الضرورة التي نجدُها في قلوبنا وقد فُطِرْنا عليها؟

فيُقال له: هذا السُّؤال إنّما ورد لتوهّم المتوهّم أنّ نصف الفلك يكون تحت الأرض، وتحت ما على وجه الأرض من الآدميين والبهائم، وهذا غلطٌ عظيم، فلو كان الفلك تحت الأرض من جهة لكان تحتها من كل جهة، فكانَ يلزم أن يكونَ الفلكُ تحتَ الأرضُ مطلقاً، وهذا قَلْبٌ للحقائق، إذ الفلك هو فوقَ الأرض مطلقاً.

وأهل الهيئة يقولون: لو أن الأرض مخروقة إلى ناحية أرجلنا وأُلْقي في الخرق شيء ثقيل كالحجر ونحوه لكان ينتهي إلى المركز، حتى لو أُلقي من تلك النّاحية حجرٌ آخر لالتقيا جميعاً في المركز.

ولو قُدِّرَ أنَّ إنسانين التقيا في المركز بدل الحجر لالْتقتْ رجلاهما ولم يكن أحدهما تحت الآخر بل كِلاهما فوق المركز، وكِلاهما تحت الفلك كالمشرق والمغرب.

فإنه لو قدّر أنّ رجلاً بالمشرق في السّماء أو الأرض، ورجلاً بالمغرب في السماء أو الأرض، لم يكن أحدهما تحت الآخر، وسواء كان رأسه أو رجلاه أو بطنه أو ظهره أو جنبه[١] مما يلي السّماء، أو مما يلي الأرض، وإذا كان مطلوبُ أحدهما ما فوق الفلك لم يطلبه الآخر[٢] إلاّ من الجهة العليا، لم يطلبْهُ من جهة رجليه أو يمينه أو يساره. لوجهين:

أحدهما:

إنّ مطلوبَهُ من الجهة العليا أقرب إليه من جميع الجهات، فلو قَدر رجلٌ أو مَلكٌ يصعد إلى السماء أو إلى ما فوق كان صُعوده مما يلي رأسه إذا أمكنه ذلك، ولا يقول عاقل أنّهُ يخرُقُ الأرض ثم يصعد من تلك الناحية، ولا أنّهُ يذهب يميناً أو شمالاً أو أماماً أو خلفاً، إلى حيث أمكنَ من الأرض الفلك هناك[٣] فوقَهُ، فيكون ذهابُه إلى الجهات الخمس تطويلاً وتعباً من غير فائدة.

ولو أنّ رجلاً أراد أنْ يخاطبَ الشّمس والقمر فإنَّه لا يخاطبه إلاّ من الجهة العليا، مع أنّ الشمس والقمر قد تشرق وقد تغرب فتنحرف عن سمت الرّأس، فكيف بما هو فوقَ كلِّ شيء دائماً لا يأفل ولا يغيب سبحانه وتعالى؟

وكما أن الحركة كحركة الحجر تطلب مركزها بأقصر طريق وهو الخط المستقيم، فالطلَّب الإرادي الذي يقوم بقلوب العباد كيف يعدِلُ عن الصِّراط المستقيم القريب؟ ويعدِل إلى طريق منحرف طويل؟ والله تعالى

---

(١) في الفتاوى الكبرى: جانبه.

(٢) كلمة «الآخر»: زيادة من الصغرى.

(٣) كلمة «هناك»: زيادة من الصغرى.

فطر عبادة على الصِّحة والاستقامة إلاّ من اجتالته الشَّياطين فأخرجتْهُ عن فطرته التي فطر عليها.

الوجه الثاني:

إنّه إذا قصد السُّفل بلا علوٍّ كان منتهى قصده إلى المركز[١]، وإنّ قصده أمامه أو وراءه أو يمينه أو يساره من غير قصد العلو، كان مُنتهى قصده أجزاء الهواء، فلا بدَّ له من قصد العلو ضرورةً، سواء قصد مع ذلك هذه الجهات أو لم يقصدها.

ولو فرض أنه قال: أقصده من اليمين مع العلو، أو من السُّفل مع العلو: كان هذا بمنزلةِ من يقول: أريدُ أنْ أحج من المغرب فأذهب إلى خراسان، ثم أذهب إلى مكة، بل بمنزلة من يقول اصعد إلى الأفلاك فأنزل في الأرض ثم أصعد إلى الفلك من الناحية الأخرى، فهذا وإن كان ممكناً في المقدور[٢] لكنّهُ يستحيل من جهة امتناع إرادة القاصد له، وهو مُخالف للفطرة، فإنّ القاصد يطلب مقصودَهُ بأقرب طريق، لا سيّما إذا كان مقصوده معبوده الذي يعبده ويتوكل عليه. وإذا توجه إليه على غير الصراط المستقيم كان مسيره[٣] منكوساً معكوساً.

و «أيضاً» فإنّ هذا يجمع[٤] في سيره وقصده بين النّفي والإثبات، بين أنْ يتقرب إلى المقصود، ويتباعد عنه، ويريده، وينفر منه، فإنّهُ إذا توجّه إليه من الوجه الذي هو عنه أبعد وأقصى، وَعَدَلَ عن الوجه الأقرب

---

(١) في الفتاوى الكبرى: ينتهي قصده إلى المركز.
(٢) في الفتاوى الصغرى: المقدار.
(٣) في الفتاوى الكبرى: سيره.
(٤) في الفتاوى الصغرى: الجمع.

الأدنى، كان جامعاً بين قصدَيْن مُتناقضين، فلا يكون قصده له تامّاً، إذ القصدُ التّام ينفي نقيضه وضده وهذا معلومٌ بالفطرة.

فإنّ الشَّخص إذا كان يُحبُّ النبي ﷺ محبّةً تامة ويقصده، أو يحب غيره مما يحب ـ سواء كانت محبّة[1] محمودة أو مذمومة ـ ومتى كانت المحبّة تامة، وطلب المحبوب طلبه من أقرب طريق يصل إليه، بخلاف ما إذا كانت المحبّة متردِّدة مثل أنْ يُحبِ ما يكره محبته في الدين، فتبقى شهوته تدعوه إلى قصده، وعقلُهُ ينهاهُ عن ذلك، فتراه يقصدُ من بعيد، كما تقول العامة: رِجْلٌ إلى قدّام، ورجل إلى خلف.

وكذلك إذا كان في دينه نقص، وعقله يأمره بقصد المسجد أو الجهاد، أو غير ذلك من المقصودات[2] التي تُحَبُّ في الدّين، وتكرهها النّفس، فإنّه يبقى قاصداً لذلك من طريق بعيد: متباطِئاً في السّيْر، وهذا كله معلوم بالفطرة.

وكذلك إذا لم يكن القاصد يريد الذّهاب بنفسه، بل يريد خطاب المقصود ودعاءه ونحو ذلك. فإنّه يخاطبه من أقرب جهة يسمع دعاءَهُ منها، وينالُ به مقصوده، إذا كان القصد تاماً، ولو كان رجلٌ من مكانٍ عالٍ، وآخر يناديه، لتوجَّه إليه وناداه، ولو حطّ رأسه في بئر وناداه، بحيثُ يسمعُ صوتَهُ لكان هذا ممكناً، لكن ليس في الفطرة أن يفعل ذلك من يكون قصده أسماعه من غير مصلحة راجحة، ولا يفعل نحو ذلك إلاّ عند ضعف القصد ونحوه.

و «حديث الإدْلاء» الذي روي من حديث أبي هريرة وأبي ذر قد رواه

---

(١) أنظر في موضوع المحبة وأنواعها وكل ما يتعلق بها كتاب «قاعدة في المحبة» للمؤلف بتحقيقي بحيث يسهب في هذا الموضوع إسهاباً حسناً لم يُسبق إليه.

(٢) في الفتاوى الكبرى: القصروات.

الترمذي وغيره من حديث الحسن عن أبي هريرة وهو مُنقطع، فإنّ الحسنَ لم يسمعْ أبي هريرة، ولكن يقوِّيه حديث أبي ذرٍّ المرفوع، فإن كان ثابتاً فمعناه موافِقٌ لهذا، فإنّ قوله: «لَوْ أَدْلَى أَحَدُكُمْ بِحَبْلٍ لَهَبَطَ على اللّه»[1] إنما هو تقدير مفروض: أي لَوْ وقع الإدلاء لوقع عليه، لكنه لا يمكن أنْ يُدلي أحد على الله شيئاً، لأنّه عالٍ بالذات، وإذا هبط شيءٌ إلى جهة الأرض، وقف في المركز ولم يصعد إلى الجهة الأخرى، لكن بتقدير فرض الإدلاء يكون[2] ما ذكر من الجزاء.

فهكذا ما ذكره السّائلِ إذا قُدِّرَ أنّ العبد يقصده من تلك الجهة، كان هو سبحانه ـ يسمعُ كلامه، كان[3] متوجّهاً إليه بقلبه، لكن هذا مما تمنع

---

(١) مسند أحمد ٢/ ٣٧٠، وفي الترمذي في التفسير، تفسير سورة الحديد، ونص الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما نبي الله ﷺ جالس وأصحابه، إذ أتى عليهم سحاب، فقال نبي الله ﷺ: هل تدرون ما هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: هذا العنان (السحاب) هذه روايا الأرض يسوقه الله إلى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه، ثم قال: هل تدرون ما فوقكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: فإنها الرقيع: سقف محفوظ وموج مكفوف، ثم قال: هل تدرون كم بينكم وبينها؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: بينكم وبينها خمسمائة سنة، ثم قال: هل تدرون ما فوق ذلك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: فإن فوق ذلك سماوين ما بينهما مسيرة خمسمائة عام حت عدَّ سبع سماوات، وما بين كل سماوين كما بين السماء والأرض، ثم قال: هل تدرون ما فوق ذلك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: فإن فوق ذلك العرش وبينه وبين السماء بُعد ما بين السماوين، ثم قال: هل تدرون ما الذي تحتكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: فإنها الأرض... ثم قال: والذي نفس محمد بيده لو أنكم دليتم بحبل إلى الأرض السفلى لهبط على الله، ثم قرأ: ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم﴾.

(٢) في الفتاوى الصغرى: لا يكون.

(٣) في الفتاوى الصغرى: إن كان.

منه الفطرة[١] ، لأنّ قصد الشيء القصد[٢] التّام يُنافي قصد ضده.

فكما أنَّ الجهة العليا بالذات تنافي الجهة السُّفلى، فكذلك قصد الأعلى بالذات يُنافي قصده من أسفل، فكما أنّ ما يهبطُ إلى جوف الأرض يمتنع صعوده إلى تلك الناحية لأنّها عالية، فتردّ الهابط بعلوِّها، كما أن الجهة العليا من عندنا ترد ما يصعد إليها من الثَّقيل، فلا يصعد الثَّقيل إلاّ برافع يرفعه يدافع به ما في قوته من الهبوط، فكذلك ما يهبط من أعلى الأرض إلى أسفلها وهو المركز، لايصعد من هناك إلى ذلك الوجه إلاّ برافع يرفعه، يدافع به ما في قوته من الهبوط إلى المركز، فإن قدر أن الدافع أقوى كان صاعداً به إلى الفلك من تلك الناحية، وصعد به إلى اللّه.

وإنّما يُسمى هبوطاً باعتبار ما في أذهان المخاطبين، أن ما يحاذي أرجلهم يكون هابطاً ويسمى هُبوطاً مع تسمية إهباطه: إدْلاء، وهو إنما يكون إدلاء حقيقياً إلى المركز، ومن هناك إنما يكون مداً[٣] للحبل والدلو لا إدلاء له. لكن الجزاء والشرط مقدَّران لا محققان. فإنَّه قال: لو أدلى لَهَبَط، أي لو فرض أن هناك إدلاء لفرض أن هناك[٤] هبوطاً وهو يكون ادلاء وهبوطاً إذا قدر أنّ السَّموات تحت الأرض، وهذا التّقدير منتفٍ، ولكن فائدته بيان الإحاطة والعلوّ من كل جانب.

وهذا المفروض مُمتنع في حقّنا لا نقدر عليه، فلا يُتصور أن يهبط على اللّه شيء، لكن اللّه قادر على أن يخرق من هنا إلى هناك بحبل، ولكن لا يكون في حقِّه إدلاء، فلا يكون في حقه هبوطاً عليه.

---

(١) في الفتاوى الصغرى: ما يمنع من الفطرة.
(٢) في الفتاوى الصغرى: لأن قصده للشيء التام.
(٣) في الصغرى: مدحاً.
(٤) عبارة: ادلاء الفرض أن هناك. ساقطة من الفتاوى الصغرى.

كما لو خُرق بحبل من القطب إلى القطب[1] أو من مشرق الشَّمس إلى مغربها، وقدّرنا أنّ الحبل مرّ في وسط الأرض، فإنّ اللّه قادر على ذلك كله.

ولا فرق بالنسّبة إليه على هذا التقدير من أنْ يخرقَ من جانب اليمين منا إلى جانب اليسار، أو من جهة أمامنا إلى جهة خلفنا، أو من جهة رؤوسنا إلى جهة أرجلنا إذا مرّ الحبل بالأرض.

فعلى كُلِّ تقدير قد خُرِقَ بالحبلَ من جانبْ المحيط إلى جانبه الآخر، مع خرق المركز، وبتقدير إحاطة قبضته بالسّموات والأرض. فالحبل الذي قُدِّر أنه خرق به العالم وصل إليه، ولا يسمى شيء من ذلك بالنِّسبة إليه لا إدلاء ولا هبوطاً[2].

وأما بالنِّسبة إلينا فإنّ ما تحت أرجلنا: تحتٌ لنا، وما فوقَ رؤوسنا: فوقٌ لنا، وما نُدليه من ناحية رؤوسنا إلى ناحية أرجلنا نتخيَّل أنَّهُ هابِطٌ، فإذا قدر أنَّ أحدَنا أدلى بحبل كان هابطاً على ما هناك، لكن هذا تقدير ممتنع في حقنا.

والمقصود به بيان إحاطة الخالق سبحانه وتعالى، كما بيَّن أنّه يقبض السَّموات، ويطوي الأرض، ونحو ذلك، مما فيه بيان إحاطته بالمخلوقات.

ولهذا قرأ في تمام هذا الحديث: ﴿هُوَ الأوّلُ والآخِرُ والظّاهِرُ والباطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَليمٌ﴾[3].

---

(١) عبارة: إلى القطب: ساقطة من الصغرى.

(٢) في الفتاوى الكبرى: بالنسبة إليه ادلاءً ولا هبوطاً.

(٣) سورة الحديد، الآية: ٣.

وهذا كله كلام على تقدير صحته فإن الترمذي[١] لما رواه قال: وفسّره بعض أهل العلم[٢] : بأنه هبط على علم اللّه.

وبعض الحلولية والاتحادية يظنُّ أن في هذا الحديث ما يدلُّ على قولهم الباطل وهو: أنه حالٌّ بذاته في كلِّ مكان، أو أنّ وجودَهُ وجود الأمكنة، ونحو ذلك.

والتحقيق: أنَّ الحديث لا يدلّ على شيءٍ من ذلك إن كان ثابتاً، فإنّ قوله: «لو أُدلِّيَ بِحَبْلٍ لَهَبَطَ» يدلُّ على أنّه ليس في المُدْلي، ولا في الحبل، ولا في الدَّلو، ولا في غير ذلك. وإنما يقتضي[٣] أنّهُ من تلك النّاحية.

وكذلك تأويلُهُ بالعلم، تأويل ظاهر الفساد، من جنس تأويلات الجهْميّة.

بل بتقدير ثبوته يكون دالاًّ على الإحاطة.

والإحاطة قد عُلِم أنّ اللّه قادرٌ عليها، وعُلِمَ أنّها تكون يوم القيامة بالكتاب والسُّنَّة، فليس في إثباتها في الجملة ما يُخالِفُ العقل وَلا الشَّرْع، لكنْ لا نتكلم إلاّ بما نعلم، ومالم نعلمه أمسكنا عنه، وما كان مقدِّمةُ دليله مشكوكاً فيها عند بعض النّاس، كان حقُّهُ أنْ يُشَكَّ فيه حتى يتبيَّن له الحقُّ، وإلاّ فليسكت عمّا لا يعلم.

وإذا تبيّن هذا، فكذلك قصده[٤] يقصده إلى تلك النّاحية، ولو فُرِضَ

---

(١) قال الترمذي في أبواب تفسير القرآن، تفسير سورة الحديد، قالوا: إنما هبط على علم اللّه وقدسيته وسلطانه، وعلم اللّه وقدرته وسلطانه في كل مكان.

(٢) في الفتاوى الكبرى: أهل الحديث.

(٣) في الفتاوى الكبرى: وإنها تقتضي.

(٤) في الفتاوى الكبرى: قاصده.

أنَّا فعلناه لكنّا قاصدين له على هذا التّقدير، لكنّ قصدُنا له بِالقصد إلى تلك الجهة مُمتنع في حقِّنا، لأنّ القصد التّام الجازم يوجب طلبَ المقصود بحسب الإمكان.

ولهذا قد بيّنا في غير هذا الموضع، لما تكلّمنا على تنازع النَّاس في النّيَّة المجردة عن الفعل، هل يُعاقب عليها أم لايعاقب؟ بيّنا أنّ «الإرادة الجازمة» تُوجب أن يفعل المريد ما يقدر عليه من المراد، ومتى لم يفعل مقدورهُ لم تكن إرادته جازمة، بل يكون همّاً «وَمَنْ همَّ بِسَيِّئةٍ فَلَمْ يَفْعَلْها لَمْ يُكْتَبْ عَلَيْهِ، فَإِنْ تَرَكَهَا للّه كَتَبَ لَهُ حَسَنَةً»[1] .

ولهذا وقع الفرق بين همّ يوسف عليه السلام، وهمَّ امرأة العزيز، كما قال الإمام أحمد[2] : «الهمُّ همَّانِ: همُّ خطراتٍ، وهمُّ إصرارٍ، فيوسُفُ عليه السّلامَ همّاً تَرَكَهُ للّه فأُثيبَ عليه، وَتِلْكَ هَمّتْ همَّ إصرار ففعلتْ ما قَدِرَتْ عَلَيْهِ مِنْ مُرادها، وإن لم يحصلْ لها المطلوبُ».

والذين قالوا يُعاقب بالإرادة احتجوا بقوله ﷺ: «إذَا الْتقى المُسْلِمانِ بِسَيْفَيْهِما، فالْقاتِلُ وَالْمَقْتُولُ في النّارِ»، قالوا: يا رسول اللّه هذا القاتل فما بالُ المقتولِ؟، قال: «إنَّهُ أرادَ قَتْلَ صاحِبِه» وفي لفظ: «إنَّهُ كان حريصاً على قَتْلِ صاحِبِهِ»[3] فهذا أرادَ إرادةً جازِمَةً، وفعْلَ ما يقدِرُ عليه، وإنْ لم يدركْ مطلوبهُ، فهو بمنزلةِ امرأة العزيز، فمتى كان القصدُ جازماً لزم أنْ

---

(١) البخارى في الرقاق، باب من هم بحسنة أو سيئة، وفي التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿يريدون أن يبدلوا كلام اللّه﴾ مسلم في الإيمان ١٢٨ ـ ١٣١: باب إذا هم العبد بحسنة..، الترمذي في التفسير، باب من سورة الأنعام برقم ٣٠٧٥.

(٢) أي: الإمام أحمد بن حنبل رضي اللّه عنه.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: (١/١٥) و(٩/٥)، ومسلم في صحيحه في كتاب الفتن (١٥)، والنسائي في سننه: (٧/١٢٥)، وابن ماجه في سننه: (٣٩٦٤)، والبيهقي في السنن الكبرى: (٨/١٩٠).

يفعل القاصد ما يقدر عليه في حصول المقصود، وإذا كان قادراً على حصول مقصوده بطريقٍ مستقيم امتنع مع القصد التام ان يُحَصِّلَهُ بطريقٍ معكوسٍ بعيدٍ.

فلهذا امتنعَ في فِطر[1] العباد عند ضرورتهم ودعائهم للّه تعالى وتمام قصدهم لَهُ أن لا[2] يتوجَّهُوا إلَيْهِ إلاّ توجُّهاً مُستقيماً، فيتوجهونَ إلى العلُوِ دونَ سائرِ الجهاتِ، لأنَّهُ الصراطُ المستقيمُ القريبُ، وما سِواهُ فيهِ من البُعْدِ والإنحراف والطُّولِ ما فيه، فمع القصد التامِّ الذي هو حال الداعي العابد، والسّائل[3] المضطر يمتنع أنْ يتوجّه إليه إلاّ إلى العلوِّ، ويمتنع أنْ يتوجَّهَ إليه إلى جهةٍ أُخرى، كما يمتنع أنْ يُدلي بحبلٍ يهبِطُ عليه، هذا، واللّه أعلم.

---

(١) في الفتاوى الكبرى: «فعل» بدلاً من «فطر».
(٢) كلمة «لا» ساقطة من الصغرى.
(٣) في الفتاوى الصغرى: السائر.

الفطرة في الدعاء والتوجه

وأمّا من جهة الشّريعة فإنّ الرُّسُل صلوات اللّه عليهم بُعثوا بتكميل الفطرة وتقريرها، لا بتديل الفطرة وتغييرها. قال ﷺ في الحديث المتفق عليه: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوْلَدُ على الفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدانِهِ أوْ يُنصرِّانِهِ أوْ يُمَجِّسانِهِ، كما تنتج البهيمة بهيمةً جمعاء» أي مجتمعة الخلق سوية الأطراف، ليس فيها نقص كجدْعٍ وغيره «هَلْ تَرَوْنَ فيها مِنْ نَقْصٍ»[1] هل تحسُّونَ فيها مِنْ جدعاءَ»[2].

وقال اللّه تعالى: ﴿فأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّين حَنيفاً فِطْرَةَ اللّه الّتي فَطَرَ النّاسَ عَلَيْها لا تَبْديلَ لِخَلْقِ اللّه ذلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلكِنَّ أكْثَرَ النّاس لا يَعْلَمُون﴾[3] فجاءت الشّريعةُ بالعبادة والدُّعاء بما يوافِقُ الفطرة، بخلافَ ما عليه أهل الضَّلال من المشركين والصّائبين المتفلسفة وغيرهم، فإنّهم غيّروا الفطرة في العلم والإرادة جميعاً، وخالَفُوا العقل والنّقْل، كما قد بسَطناه في غير هذا الموضع.

---

(١) ما بين قوسين زيادة من: الصغرى.

(٢) البخاري في الجنائز، باب إذا أسلم الصبي، وباب ما قيل في أولاد المشركين، مسلم في القدر برقم ٢٦٥٨ والجدعاء: مقطوعة الأذن أو غيرها من الأعضاء.

(٣) سورة الروم، الآية: ٣٠.

وقد ثبت في الصحيحين[1] من غير وجه أنّ النبي ﷺ قال: «إذا قامَ احَدُكُمْ إلى الصّلاةَ فلا يبصُقُ قِبَل وَجْهِهِ فإنّ اللّه قِبَلَ وَجْهِهِ، ولا عَنْ يمينِهِ فإنّ عنْ يمينِهِ مَلكاً، ولكنْ لِيَبْصُقْ عن يسارِه أوْ تَحْتَ رِجْلِهِ» وفي رواية: أنه أذن أن يبصُق في ثوبه.

وفي حديث أبي رُزين[2] المشهور الذي رواه عن النَّبيِّ ﷺ لمّا أُخبر النبي ﷺ: «أنّهُ ما مِنْ أحَدٍ إلاّ سيخلُو بِهِ رَبُّهُ» فقال له أبو رُزين: كيفَ يسمعُنا يا رسول اللّه، وهو واحدٌ ونحنُ جميعٌ؟ فقال: «سَأُنَبِّئُكَ بمثلِ ذلك في آلاء اللّه، هذا القمر آية من آياتِ اللّه كُلُّهُم يراهُ مُخْلِياً به، فاللّه أكبر»[3].

ومن المعلوم أنّ مَنْ توجَّه إلى القمر وخاطبه إذا قَدِرَ انْ يُخاطبه لا يتوجَّه إليه إلاّ بوجهه مع كونه فَوْقه فهو مستقبلٌ له بوجهه مع كونه فوقه[4] ومن الممتنع في الفطرة، أنَّ يستدبرَه ويخاطبه مع قصده التام له، وإنْ كان ذلك مُمكناً، وإنما يفعل ذلك مَنْ ليس مقصوده مخاطبته، كما يفعل مَنْ ليس مقصوده التوجُّه إلى شخص بخطابٍ فيُعرض عنه بوجهه ويُخاطب غيره ليسمعَ هو الخطاب، فأما مع زوال المانع فإنَّما يتوجَّه إليه.

فكذلك العبد إذا قام إلى الصلاة فإنه يستقبلُ ربَّه وهو فوقَهُ، فيدعوهُ مِنْ تلقائه، لا مِنْ يمينِهِ، ولا مِنْ شماله، ويدعوهُ من العلوّ لا من السّفل،

---

(١) البخاري في المساجد، باب حل المخاط بالحصى من المسجد، وباب لا يبصق عن يمينه في الصلاة. مسلم في المساجد، باب النهي عن البصاق في المسجد.

(٢) هو لقيط بن عامر بن صبرة العقيلي. من الصحابة الكرام من أهل الطائف (الإصابة ٣/ ٣١١).

(٣) أبو داود في السنة، باب في الرؤية برقم ٤٧٣١، ابن ماجه في المقدمة برقم ١٨٠، الإمام أحمد ٤/ ١١ و١٢.

(٤) جملة: فهو مستقبل له بوجهه مع كونه فوقه: ساقطة من الصغرى.

كما إذا قدر أن يخاطب القمر.

وقد ثبت عنه ﷺ[1] في الصَّحيحين[2] أنه قال: «لَيَنْتَهِيَنَّ أقوامٌ عَنْ رَفْعِ أبْصارِهم في الصّلاة، أوْ لا تَرْجِعُ إلَيْهم أبْصارُهُمْ».

واتفق العلماء على أنّ رفعَ المصلّي بصَرهُ إلى السماء منهيٌّ عنه، وروى أحمد عن محمد بن سيرين[3]: أن النبيّ ﷺ كانَ يرفعُ بصرَهُ في الصّلاة إلى السماء حتى أنزل الله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذينَ هُمْ في صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ﴾[4] فكان بصرهُ لا يُجاوز موضع سجوده.

فهذا مما جاءت به الشَّريعة تكميلاً للْفطرة، لأنّ الدّاعي السّائل الذي يُؤْمر بالخشوع ـ وهو الذلُّ والسُّكون[5] ـ لا يُناسب حاله أنْ ينظرَ إلى ناحيةِ مَنْ يدعوه ويسألُه، بل يُناسب حاله الإطْراق، وغضّ البصر أمامه.

وليس نهيُ المصلي عن رفع بصره في الصّلاة رداً على «أهل الإثبات»[6] الذين يقولون أنُّه على العرش، كما يظنه[7] بعض جُهّال الجهميّة، فإن الجهميّة عندهم لا فرق بين العرش وقعر البحر، فالجميع سواء، ولو كان لذلك لم ينهَ عن رفع البصر إلى جهة، ويؤمر بردِّه إلى

---

(١) عبارة: عنه ﷺ: زيادة من الصغرى.

(٢) مسلم في الصلاة، باب النهي عنرفع البصر إلى السماء ٤٢٨، ٤٢٩، أبو داود في الصلاة، باب النظر فيالصلاة برقم ٩١٢، النسائي في السهو، باب النهي عن رفع البصر إلى السماء عند الدعاء.

(٣) أحد كبار التابعين، كان مشهوراً بالعبادة والتفسير، كان لا يرى الراوية بالمعنى، توفي سنة ١٠٠هـ.

(٤) سورة المؤمنون، الآية: ١ و٢.

(٥) في الفتاوى الكبرى: السكوت.

(٦) هم الذين ساروا على طريقة السلف رضوان الله عليهم.

(٧) أي كما يظن الجهمية من نهي المصلي.

أُخرى لأنْ هذه وهذه عند الجهْميّة سواء.

وأيضاً فلو كان الأمر كذلك، لكن النَّهي عن رفع البصر شاملاً لجميع أحوال العبد.

وقد قال تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾[1] فليس العبد بمنهيٍّ عن رفع بصره مطلقاً، وإنما نهي في الوقت الذي يؤمر فيه بالخشوع لأنّ خفض البصر من تمام الخشوع، كما قال تعالى: ﴿خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾[3].

و «أيضاً» فلو كان النَّهي عن رفع البصر إلى السَّماء وليس في السَّماءِ إلّه، لكان لافرق بين رفعه إلى السَّماء وردِّه إلى جميع الجهات.

ولو كان مقصوده أنْ يُنهي الناس أن يعتقدوا أنّ اللّه في السَّماء، أو يقصدوا بقلوبهم التوجه إلى العلو لبيِّن لهم ذلك، كما بيّنَ لهم سائر الأحكام، فكيف وليس في كِتاب اللّه ولا سنة رسوله ﷺ، ولا في قول سلفِ الأمة حرفٌ واحدٌ يُذكر فيه أنه ليس اللّه فوقَ العرش، أوْ أنه ليس فوقَ السَّماء، أوْ أنه لا داخل العالم ولا خارجه، ولا محايث[4] له، ولا مُباين له، أوْ أنّه لا يقصد العبد إذا دعاه العلوَّ دون سائر الجهات؟؟

بل جميع ما يقوله الجهْمية من النفي ويزعمون أنّه الحق ليس معهم بِهِ حرف من كتاب اللّه ولا سنة رسوله ﷺ، ولا قول أحد من سلف الأمّةِ وأئمتها، بل الكتاب والسُّنَّة وأقوال السَّلف والأئمة مملوءة بما يدلّ على

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٤.
(٢) سورة القمر، الآية: ٧.
(٣) سورة الشورى، الآية: ٤٥.
(٤) سبق شرحها.

نقيض قولهم، وهم يقولون:

أن ظاهر ذلك كُفْرٌ، فَنُؤَوِّلُ، أوْ نفوِّض.

فعلى قولهم ليس في الكتاب والسُّنَّة وأقوال السّلف والأئمَّة في هذا الباب إلا ما ظاهره كُفر، وليست فيها من الإيمان في هذا الباب شيء.

والسَّلب الذي يزعمون أنّه الحق الذي يجب على المؤمن، أو خواص المؤمنين اعتقادهُ عندهم، لم ينطق به رسولٌ ولا نبيٌّ ولا أحدٌ من ورثةِ الأنبياء والمرسلين.

والّذي نطقتْ به الأنبياء وورثتُهُم ليس عندهم هو الحق، بل هو مخالف للحق في الظَّاهر، بل وحذّاقهم يعلمون أن مخالف للحق في الظَّاهر والباطن.

لكن هؤلاء منهم من يزعُم أنّ الأنبياء لم يمكنهم أن يُخاطبوا الناس إلّا بخلافِ الحقِّ الباطن، فَلَبَّسُوا أو كذَّبوا لمصلحة العامة.

فيُقال لهم: فهلاَّ نطقوا بالباطن لخواصهم الأذكياء الفُضلاء إنْ كان ما يزعمونَهُ حقاً؟

وقد علم أنّ خواص الرُّسل هم على الإثبات أيضاً، وإنه لم ينطق بالنَّفي أحدٌ منهم إلا أنْ يُكَذِّبَ على أحدهم، كما يقال عن عمر: أنّ النَّبيَّ ﷺ وأبا بكر كانا يتحدثان وكنتُ كالزِّنجيِّ بينهما. وهذا مُختلقٌ باتِّفاق أهل العلم، وكذلك ما نُقل عن عليٍّ وأهل بيته أنّ عندهم علماً باطِناً يختلف عن[1] الظاهر الذي جمهور الأمة.

وقد ثبت في الصِّحاح وغيرها عن عليٍّ رضي اللّه تعالى عنه أنه لم

---

(١) في الفتاوى الكبرى: يُخالف الظاهر.

يكن عندهم عن النَّبيِّ ﷺ شيءٌ ليس عند النَّاس، ولا كتاب مكتوب إلا ما كان في الصَّحيفة(١) ، وفيها: «الديّات وفكاك الأسير(٢) ، وأن لا يُقتَلُ مسلمٌ بكافرٍ».

ثم أنَّهُ من المعلوم أنّ مَنْ جعله اللّه هادِياً مُبلِّغاً بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ إذا كان لا يتكلَّم أبداً قط إلا بما يخالف الحقّ الباطن الحقيقيّ فهو إلى الضّلال والتدْليس أقرب منه إلى الهُدى والبيان، وبسط الرد عليهم له موضع غير هذا.

والمقصود أن ما جاء عن النَّبيِّ ﷺ في هذا الباب وغيره كله حقٌّ، يصدّقُ بعضه بعضاً، وهو مُوافِقٌ لفطرة الخلائق، وما جُعل فيهم من العقول الصَّريحة والقصود الصحيحة لا يخالف العقل الصريح ولا القصد الصّحيح(٣) ولا الفطرة المستقيمة، فالنّقل الصّحيح(٤) الثّابت عن رسول

---

(١) إسناده صحيح، مسند أحمد ١/٨١، ١٢٦، البخاري في فضائل المدينة، باب حرم المدينة برقم ١٨٧٠، وفي الجزية والموادعة، باب ذمة المسلمين وجوارهم برقم (٣١٧٢)، وفي إثم من عاهد ثم غدر، وفي الفرائض، باب إثم من تبرأ من مواليه، وفي الاعتصام، باب ما يكره من التعمق والتنازع والغلو في الدين والبدع، ومسلم في الحج، باب فضل المدينة برقم (١٣٧٠)، في العتق، باب تحريم تولي العتيق غير مواليه برقم (١٣٧٠)، وأبو داود في المناسك، باب تحريم المدينة برقم ٢٠٣٤، الترمذي في الولاء، باب ماجاء فيمن تولى غير مواليه برقم (٢١٢٨). ونص الحديث: عن إبراهيم التيمي عن أبيه، قال:
خطبنا علي فقال: مَنْ زعم أنّ عندنا شيئاً نقرؤه إلاّ كتاب اللّه وحده وهذه الصحيفة ، صحيفةٌ فيها أسنان الإبل، وأشياء من الجراحات، فقد كذب، قال: وفيها قال رسول اللّه ﷺ: «المدينة حرمٌ ما بين عَيْرٍ إلى ثَوْرٍ، مَنْ أحدث فيها حدثاً أو آوى مُحدثاً، فعليه لعنة اللّه والملائكة والناس أجمعين، لا يقبلُ اللّه منه يوم القيامة عدلاً ولا صرفاً، وذِمّةُ المسلمين واحدةٌ يسعى بها أدناهم».
(٢) في الفتاوى الكبرى: أسرٌ.
(٣) هذه الجملة ساقطة بأكملها من الفتاوى الصغرى.
(٤) ليست في الفتاوى الصغرى.

اللّه ﷺ.

وإنما يظنُّ تعارضهما من صَدَّق بباطلٍ من المنقول، أو فهم منه مالم يدل عليه، أو إذا اعتقد شيئاً ظنه من العقليّات وهو من الجهليات، أو من المكشوفات وهو من المكسوفات، إذا كان ذلك مُعارضاً لمنقول صحيح، وإلا عارض بالعقل الصرّيح، أو الكشف الصّحيح، ما يظنه منقولاً عن النّبيِّ ﷺ ويكون كذباً عليه، أو ما يظنّه لفظاً دالاً على معنى[1] ولا يكون دالاً عليه، كما ذكروه في قوله ﷺ: «الحَجَرُ الأسْوَدُ يمينُ اللّه في الأرْضِ فَمَنْ صافَحَهُ وَقَبَّلَهُ فَكَأنّما صافَحَ اللّه وَقَبّل يَمينَهُ»[2] حيث ظنوا أن هذا وأمثاله محتاجُ إلى التأويل، وهذا غلطٌ منهم.

لو كان هذا اللفظ ثابتاً عن النّبيِّ ﷺ، فإنّ هذا اللّفظ صريح في أنّ الحجر الأسود ليس هو من صفات اللّه إذ قال هو «يمين اللّه في الأرْضِ» فتقييده بالأرْض يدلُّ على أنه ليس هو يَدُهُ على الإطلاق، فلا يكون اليد الحقيقية. وقوله ﷺ: «فَمَنْ صافَحَهُ وقبَلَهُ فكأنّما صافَحَ اللّه وَقَبَّلَ يمينه» صريح في أنّ مصافحه ومقبّله ليس مُصافحاً للّه ولا مُقبّلاً ليمينهِ، لأنّ المشبّه ليس هو المشبّه به، وقد أتى بقوله: «فكأنّما» وهي صريحة في التّشبيه. وإذا كان اللّفظ صريحاً في أنه جعله[3] بمنزلة «اليمين» لا أنه نفس اليمين، كان مَن اعتقد أنّ ظاهره أنّه حقيقة اليمين، قائلاً للكذب المبين.

---

(١) في الفتاوى الكبرى: شيء.

(٢) انظر «كنز العمال ١٢/ ٢١٤ ـ ٢١٧ حيث ورد بألفاظ متقاربة ليس منها هذه الرواية التي لم أجدها في الصحاح والسنن. وأقرب الروايات إليها «الحجر يمين اللّه في الأرض يصافح بها عباده» عن جابر.

(٣) في الفتاوى الكبرى: جعل.

عـود على بـدء

فهذا كلُّه بتقدير أنْ يكون العرش كرويُّ الشَّكل، سواء كان هو الفلك التّاسع أوْ غير الفلك التّاسع، وقد تبين أنّ سطحَهُ هو سَقْفُ المخلوقات، وهو العالي عليها من جميع الجوانب، وأنه لا يجوز أن يكون شيء مما في السَّماء والأرض فوقه، وأن القاصد إلى ما فوق العرش بهذا التَّقدير إنّما يقصد إلى العلوّ، لا يجوز في الفطرة ولا في الشّريعة[1] مع تمام قصده أن يقصد جهة أُخرى من جهاته الست، بل هو أيضاً يستقبلُه بوجهه مع كونه أعلى منه، كما أخبر به النَّبيّ ﷺ مثلاً[2] من المثل بالقمر، ولله المثل الأعلى، وبيّن أنّ مثل هذا إذا جاز في القمر وهو آية من آيات الله فالخالق أعلى وأعظم.

وأما إذا قدر أنّ العرشَ ليس كرويّ الشّكل بل هو فوق العالم من الجهة التي هي وجهه، وأنّهُ فوق الأفلاك الكروية، كما أن وجه الأرض الموضوع للأنام فوق نصف الأرض الكرويّ، أو غير ذلك من المقادير التي يقدَّر فيها أنّ العرش فوق ماسواه، وليس كرويّ الشّكل، فعلى كلّ تقدير لا يُتَوَجّهُ إلى الله إلاّ إلى العلوّ، لا إلى غير ذلك من الجهات.

أي: على الأرض، كقوله: ﴿ولأُصَلّبَنّكُمْ في جُذُوعِ النّخلِ﴾[3] أي

---

(١) في الفتاوى الكبرى: الشرعة.

(٢) ساقطة من الفتاوى الصغرى.

(٣) سورة طه، الآية: (٧١).

على جذوع النخل.

فمن تكون الجارية أعلم بالله منه، لكونه لا يعرف معبوده، فإنه لا يزال مُظلم القلب، لا يستنير بأنواع المعرفة والإيمان، ومن أنكر هذا القول، فليؤمن به، وليجرّب، ولينظر إلى مولاه من فوق عرشه، بقلبه مبصراً من وجه، أعمى من وجه كما سبق، مبصراً من جهة الاثبات والوجود والتّحقيق، أعمى من جهة الحصر، والتحديد، والتّكييف، فإنه إذا علم ذلك وجد ثمرته إن شاء الله تعالى، ووجد بركته ونوره عاجلاً أو آجلاً ولا ينبئك مثل خبير، والله الموفق والمعين.

فقد ظهر أنّهُ على كل تقدير لا يجوز أنْ يكونَ التَّوجه إلى الله إلاّ إلى العلوّ مع كونه على عرشه مُبايناً لخلقه، وسواءَ قدّر مع ذلك أنّه محيط بالمخلوقات، كما يُحيطُ بها إذا كانت في قبضته أو قدّر مع ذلك أنّه فوقَها مِنْ غير أنْ يقبِضَها ويحيط بها فهو على التقديرَيْن يكون فوقَها مُبانياً لها.

فقد تبيّن أنه على هذا التقدير في الخالق، وهذا التقدير في العرش لا يلزم شيء من المحذور والتّناقض، وهذا يُزيل كلّ شبهة.

وإنّما تنشأُ الشُّبهة من اعتقادَيْن فاسدين:

(أحدهما):

أنْ يظن أن العرش إذا كان كروّياً، والله فوقه، وجبَ أنْ يكونَ الله كروياً.

(ثانيهما):

ثم يعتقد أنّه إذا كان كروّياً فيصّح التَّوجُّه إلى ما هو كرويٌ كالفلك التّاسع من جميع الجهات.

وكل من هذين الإعتقادين خطأ وضلال، فإنّ الله تعالى مع كونه فوق

العرش، ومع القول بأنّ العرشَ كُرويّ، سواء كان هو التاسع أو غيره، لا يجوزُ أن يَظنّ أنّه مُشابه للأفلاك في أشكالها، كما لا يجوز أنْ يُظَنّ أنّهُ مشابه لها في أقدارها، ولا في صفاتها ﴿سُبْحانَهُ وتَعالى عَمّا يَقُولون عُلُوّاً كبيراً﴾[1] .

بل قد تبيّن أنَّه أعظم وأكبر من أنْ تكون المخلوقات عنده بمنزلَةِ داخل الفلك في الفلك، وأنها أصغر عنده من الحمصة والفلفلة، ونحو ذلك، في يد أحدنا، فإذا كانت الحمصة أو الفلفلة بل الدرهم والدينار، أو الكرة التي يلعب بها الصبيان، ونحو ذلك في يد الإنسان أو تحته أو نحو ذلك، هل يتصوَّرُ عاقلٌ إذا استشعر علو الانسان على ذلك وإحاطته، هل يكون الإنسان كالفلك؟ فاللّه ـ وللّه المثل الأعلى ـ أعظم من أن يُظَنَّ ذلك به، وإنما يظنه الذين لم يقدِّروا اللّهَ حقَّ قدره ﴿والأَرْضُ جَميعاً قبضتُهُ يَوْمَ القيامة والسّموات مطويَّات بيمينه سبحانَهُ وتعالى عما يشركون﴾ .

وكذلك اعتقادهم الثاني وهو أن ما كان فلكاً فإنَّهُ يصح التوجه إليه من الجهات الست خطأ باتفاق أهل العقل الذين يعلمون الهيئة وأهل العقل الذين يعلمون أن القصد الجازمُ يُوجب فعل المقصود بحسب الامكان.

فقد تبيّن أن كلَّ واحدة من المقدِّمتين خطأ في العقل والشرع، وأنَّه لا يجوز أن تتوجه القلوب إليه إلاَّ إلى العلو لا إلى غيره من الجهات على كل تقدير يفرض من التقديرات، سواء كان العرش هو الفلك التاسع أو غيره، وسواء كان محيطاً بالفلك كروي الشكل أو كان فوقه من غير أن يكون كروياً، وسواء كان الخالق سبحانه محيطاً بالمخلوقات كما يحيط بها في قبضته أو كان فوقها من جهة العلو منا التي تلي رؤوسنا دون الجهة الاخرى.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٤٣.

فعلى أي تقدير فُرض به كان كل من مقدمتي السؤال باطلة وكان اللّه تعالى إذا دعوناه بقصد العلو دون غيره كما فُطرنا على ذلك، وبهذا يظهر الجواب عن السؤال من وجوه متعددة، واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

* * * *

فهرس الكتاب



